

الاعلام من الادباء والشعراء



# كحبيب زهير حياته وشعره

إعداد  
محمد علي الصباح  
ماجستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية  
بيروت - لبنان



الاعلام من الادباء والشعراء

shia-books.net  
mktba.net رابطہ بدیل

# كُتُبُ بَنِي هَاشِمٍ حَيَاتُهُ وَشِعْرُهُ

إعداد

محمّد علي الصّباح

ما جُمِعَ في اللغة العربيّة وآدابها

دار الكتب العلميّة

بيروت - لبنان

جميع الجفوق بمجموعة  
لدار الكتب العلمية  
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى  
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

---

مطبعة: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان  
رقب: ١١/٩٤٤٤ تلخس : ٤١٢٤٤٤  
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

## مقدمة

كعب بن زهير، أحد فحول الشعراء المخضرمين، عدّه ابن سلام من شعراء الطبقة الثانية ووضعه قبل الحُطَيْثَةِ.

كان في مقتبل العمر عند ظهور الدعوة الإسلامية، شاب مَعْتَدٌ بنفسه وبشاعريته، فخور بقومه وأهله، وخاصة والده زهير بن أبي سلمى، الذي ملأ صيته البوادي، وشغل الوبر والحضر، وتغنّت بحوليّاته<sup>(١)</sup> الركبان.

لم يتقبل كعب الدين الجديد بسهولة، لا بل ناصبه العداء، حتى إذا ما أعلن أخوه بجيرُ إسلامه، وعلم كعب بخبره، أرسل إليه أبياته الشهيرة يسخر بها منه ويحثه فيها على ترك الإسلام والعودة عنه إلى دينه القديم، والتي بسببها أهدر الرسول ﷺ دمه.

وظل كعب على وثنيته حتى فُتحت مكة، وانصرف الرسول ﷺ من الطائف، فكتب إليه أخوه بجير أن النبي ﷺ قتل كل من آذاه من الشعراء المشركين إلا من أعلن إسلامه، ودعاه أن يقدم على رسول الله ثائباً، وكان أن شرح الله صدره

---

(١) اشعاره التي كان ينظمها ويفحها في حول «عام» كامل كما يقال.

للإسلام، فقدم المدينة وباع الرسول ﷺ وأعلن إسلامه .  
منشداً بين يديه مدحته الشهيرة الخالدة، فكساه النبي ﷺ  
برذته، التي اكتسب بها كعب حُلَّةَ مجَدٍ لا تُبلى على مرَّ  
العصور، ولُقِّبت قصيدته «بالبردة»؛ كما عُرفت القصائد التي  
عارضتها ونهجت نهجها «بنهج البردة».

وهكذا حسن اسلام كعب، فاتخذ من الرسول جَاراً أو  
ملاذاً، كما أصبح من الصحابة الابرار، فصفت نفسه، وأخذ  
يستشعر معاني الإسلام الروحية، وما دعا إليه من الخلق  
الكريم، بعد ما كنا نراه دائماً في شعره الجاهلي مفاخرأ  
متوعداً مهدداً، في نفسه شر كثير، كما يدل عليه ديوانه  
وتأخره في إسلامه .

وبعد، فإننا نضع بين يديَّ القاريء حياة كعب وشعره  
أملين أن يستشعر فيهما الروح الإسلامية التي غيرت كعباً  
وحولته إلى إنسان فيه كثير من الحكمة والصبر والتلطف .

النبطية ٦ / ١٢ / ١٩٨٨

محمد علي الصَّبَّاح

## لمحة تاريخية عن ديار العرب قبل الاسلام

إذا قِيلَ ديار العرب تبادرت فوراً إلى الذهن خيالات الجزيرة العربية، تلك المنطقة الصحراوية العارية إلا من كثران الرمل وحرارة الشمس، ومع أنه كان لقوم منهم مواطن في البلاد الشامية والعراقية، كالغساسنة والمناذرة، إلا أن هذه الربوع على جمالها وتحضر بعضها، لم تكن تمثل إلا جزءاً يسيراً من ديارهم بالنسبة إلى الجزيرة العربية الواسعة الأرجاء، فالجزيرة هي مهد العروبة الخالصة، وكل عربي أصيل، ينتمي إليها، وإن بعدت به الدار عنها وشط المزار.

وسُميت جزيرة مع إن البحر لا يكتنفها إلا من نواح ثلاث، وذلك من قبيل التوسع، وكان بالأحرى أن تُسمى شبه الجزيرة العربية، فالبحر الأحمر يحيط بها من الغرب، ومن الشرق الخليج العربي أو الخليج الفارسي أو خليج العجم، كما يحلو للبعض أن يُسميه، ومن الجنوب المحيط الهندي، وأما الشمال فإنه مُتصلٌ بأرض الشام والعراق.

والجزيرة العربية خمسة أقسام: القسم الأول اليمَن في الجنوب ويقال لها الخضراء أو السعيدة، لما فيها من المزارع

والاشجار والمراعي والمياه، وتقسم اليمَن بدورها إلى خمسة أصفاع<sup>(١)</sup>، وهي حَضْرَمَوْت، ومَهْرَة، والشُّحْر، وعُمان، ونجران. ومن مدنها الشهيرة صنعاء، وكانت سرير<sup>(٢)</sup> ملوك اليمن، وفيها قصر عُغْمَدان؛ ومدينة مأرب ويُقال لها سبأ وفيها العُرم، وزبيدة، وعَدَن، وظفار قاعدة بلاد الشُّحْر.

والقسم الثاني: العُرُوض، وسُميت كذلك لاعتراضها بين اليمن ونجد، وتشمل كلاً من البحرين واليمامة.

والقسم الثالث: تِهامة، وتقع على شاطئ البحر الأحمر، بين اليمن والحجاز، وفيها طريق القوافل إلى الشام. ومن مُدُنِها مكة وفيها البيت والكعبة وغار حراء.

والقسم الرابع: الحجاز، بين نجد وتهامة، أشهر مدنه يثرب، التي أصبحت فيما بعد مدينة الرسول ﷺ، والطائف، وخيبر، وفيه سوق عُكاظ، وماء بَذَر.

والقسم الخامس: نجد، وهو صَفْعٌ مرتفعٌ، طيب الهواء، لهج بذكره الشعراء، ويقع فيه «أرض العالية» التي كان يحميها كُليب. ويقع هذا القسم بين العراق شرقاً، وبادية الشام شمالاً، والحجاز غرباً، واليمامة جنوباً.

---

(١) مفرداً صفع، وهو قسم من الأرض.

(٢) عاصمة الملك.

وفي الجزيرة جبال وأودية وصحراوات وحرّات<sup>(١)</sup>. فمن جبالها أجأ وسلمى في جنوبي بادية السماوة؛ وهما منازل بني طيء؛ ورَضْوَى بالقرب من يَنْبُع، وأُحُد في شمالي يثرب، وأبو قُبَيْس في شرقي مكة، وأبان الأبيض في شمالي وادي الرُّمّة. ومن أوديتها وادي القُرى بالقرب من يثرب، ووادي الرُّمّة بعالية نجد، ومن بواديتها بادية السماوة، وهي عبارة عن رمال وُغْس<sup>(٢)</sup> يصعب فيها السير بسبب نعومة رمالها حيث تغيب فيها الأقدام. هذا بالإضافة إلى قلة الماء والكلاء؛ والدهناء وهي عبارة عن سبعة جبال من الرمل بين يبرين وفَيْد، ويبرين هذه رمال كثيرة بين اليمامة والبحرين، وفَيْد بلدة صغيرة تقع في منتصف الطريق بين مكة والكوفة؛ وهي كثيرة المراعي رغم قلة الماء. قال عنها ياقوت الحموي: «إذا أخضبت الدهناء، ربّعت العرب جمعاء». ورمال الاحقاف بأرض اليمن بين عُمان وحضر موت. ومن حرّاتها، حرة<sup>(٣)</sup> سُليّم في عالية نجد، وحرّة واقم شرقي يثرب، وفيها كان يوم الحرّة في خلافة يزيد بن معاوية، حيث انتهب فيه عسكرُ الشام المدينة سنة ثلاث وستين هجرية.

ومناخ الجزيرة يختلف باختلاف ارتفاعها وانبساطها، ففي

(١) مفردا حرّة وهي أرض بركانية سوداء اللون، ذات حجارة سود كأنها أُحرقت.

(٢) أي لينة ناعمة، تغيب فيها الأرجل.

(٣) وهي أرض ذات حجارة سود كأنها أُحرقت.



الجبـال وعلى شاطئـه البحر الجنوبي فهو معتدل، وفي السهول حاراً، كما تهب ريح محرقة من الجنوب والغرب تعرف بريح السُّموم. ويهطل المطر شرقي اليمن وشمالها ابتداءً من حزيران إلى تشرين الثاني، وتكثر الأمطار في حضرموت في فصل الربيع، وأما الأقاليم الشمالية فهي قليلة الأمطار، قليلة المياه، لا تنبت العشب ولا الشجر إلا في بعض الأماكن، وأكثر شجرها شائك لظمه إلى الماء، ويشد البرد والصقيع إذا احتبس المطر، وثارـت الريح من ناحية الشام وهي رياح تهب من الشمال تنذر البدوي بالبرد والقحط والجوع، ومنها أشتق التشاؤم، حتى إذا أقلعت خفَّ القُرُ. وتهب الريح اليمانية رخاءً، تبشر بقـدوم المطر والربيع والشبع ومنها أشتق التيمن، وصار الأعرابي يتطير بكل ما يأتيه من ناحية الشمال - عن شماله - ويتفاءل بكل ما يأتيه من ناحية اليمن - عن يمينه - . وكان الشمال موطن العرب العدنانية الذين يعودون بنسبهم إلى إسماعيل بن إبراهيم من جاريته هاجر، وهم من العرب المستعربة. كما كان الجنوب موطن العرب القحطانية، الذين يرجعون بنسبهم إلى يعرب بن قحطان وأولاده، وهذا لا يعني أن الشمال استأثر بالعدنانية وحدها، بل اتخذ بعض قبائلها الجنوب موطناً لها، وكذلك أطراف الشام والعراق.

كما غلبت البداوة الخشنة وسكن الخيام على عرب  
الشمال، فكان العدنانيون في كثرتهم بدواً رُحلاً لا يأنسون  
بقرية، ولا يسكنون بيتاً معموراً، إلا أقلهم كبنو قريش في  
مكة، وبنو ثقيف في الطائف. على أن هؤلاء البدو الجفاة  
هم الذين أنبتو فحول الشعراء، وجاءنا عنهم الشعر الكثير.

## أحوال العرب الاجتماعية في الجاهلية

عُرف الشعر الجاهلي بأنه ديوان العرب لاشتماله على أخبارهم، وسائر أحوالهم، فجدير بنا، ونحن نمهد لدراسة هذا الشعر بصورة عامة، ودراسة شعر كعب بن زهير بصورة خاصة، أن نمهد بلمحة تاريخية، وأن نُلَمَّ بأخلاق القوم وصفاتهم، وما لهم من عادات وتقاليد، وما يعتنقون من عقائد ونظم وعلوم؛ فإن هذا الالمام يساعد على دراسة شعرهم واستجلاء مراميهِ.

شخصية البدوي وأخلاقه: للبدوي شخصية قوية تظهر بأنانيته، وحبهِ الخير لنفسه دون غيره، والاستئثار بالجاه والذكر الحسن والصفات الحميدة. ونزوعه إلى الحرية والاستقلال، وتظهر في جَلَدِهِ وصبره على الفقر والجوع والظمأ ومغالبة الطبيعة في صحرائه القاسية العاتية، هذه الصحراء التي لفحت بحرها فتركته أسمر اللون يابس الجلد خفيف اللحم، أسود العينين والشعر، واستولت على إحساسه بوحشتها، فجعلته حاد السمع والبصر سريع التأثر، متوتر الأعصاب، مذعنًا للقضاء والقدر، وصيرته بشحها

وبخلها وقحطها كريماً مقداماً يُقْرِى الضيوف ويمنع الجار،  
ويغيث الملهوف، حتى أصبح حب القرى وحسن الجوار من  
طبائعه، يُفاخر بها، ويرى أنه من العار عليه ألا يكرم الضيف  
ويحمي الجار. ولم تكن الصحراء العربية سخية ولا رحيمة  
بأهلها، كما لم يكن أهلها رحماء بينهم ولا متناصفين.  
فالحياة عندهم تقوم على التنافس الشديد، والعنف الذي لا  
هوادة فيه، والقسوة التي لا تلين، والقارىء لشعرهم وآثارهم  
يستطيع أن يرى بوضوح أن القوة في كل صورها هي المثل  
الأعلى الوحيد الذي آمنوا به وحرصوا عليه. فكل ما نالته يد  
القوي فهو حق له. الفضيلة عندهم هي الرجولة،  
والشجاعة، والاقدام، وركوب المخاطر والاهوال، والتجلد  
للمكاره والخطوب. للقوي صفوة الحياة ومتاعها، وللضعيف  
الفضل والعفو. فالضعف في كل مظاهره هو الجريرة<sup>(١)</sup>  
الوحيدة التي يعير بها الرجل، ويذوق من جرائها الهون<sup>(٢)</sup>  
والنكال<sup>(٣)</sup>. لم يكن بينهم للخيرين الوادعين مكان. وإنما  
كان المكان الأول للظالم الغاشم، الذي ينتزع نصيبه انتزاعاً  
من معترك الحياة جريئاً مقداماً، ويستخلصه عزيزاً مقتدراً.

---

(١) الذنب..

(٢) الذل.

(٣) العقاب أو النازلة.

يغير النفر القوي على النفر الضعيف، فيجلبه عن الماء، ويغصبه ماله وإبله ومتاعه ويخلفه على نسائه. يرد القوي الماء فيشرب صفوة وينتظر الضعيف خلو المورد، قانعاً بالطين والكدر. ويقضي القوي الأمر، والضعيف مُخَلَّفٌ لا تصفي له أذن، ولا يقام لرأيه وزن. فأهل الجاهلية من العرب، والبدو منهم خاصة لا يحقرون الظالم لظلمه، ولكنهم يعيرون المظلوم لضعفه، وهم قوم لا يسألون الضارب لِمَ ضربت، ولكنهم يسألون الباكي لِمَ بكيت. وهم لا ينظرون إلى المغتصب هذه النظرة المهينة التي نرمق بها اللص وقاطع الطريق. ولكنهم ينظرون إليه نظرة البطولة والإعجاب، ما دام يسعى جهرة، ولا يدب ديباً، ويتستر متزاوراً. ولم يكن يستغيث بالسلطان منهم إلا الضعيف العاجز.

الحياة القبلية: كانت الأعراب في البادية تعيش قبائل متقاطعة، لا يجتمع بعضها إلى بعض إلا في حلفٍ موقوتٍ. فلم يستطيعوا أن ينشئوا في صحرائهم مجتمعاً راقياً، وقومية شاملة، أو دولة قوية موحدة ذات منعة، وكان بين الفرد والقبيلة صلة متينة مكيئة تجعل الفرد بكليته للقبيلة، كما تجعل القبيلة بكليتها للفرد، حتى إذا نزل عارٌ بالقبيلة أصاب كل فرد منها، وإذا نَبَّهَ ذكر فرد في قبيلة عاد فخره إلى القبيلة

بأسرها، وكانت القبيلة تتحمل جناية ووزر كل فرد فيها، وتنصره ظالماً كان أو مظلوماً. وقد يُتفق أن تخلع القبيلة من تكثر معراته<sup>(١)</sup> أو من لا تستطيع حمايته، فيلجأ إلى قبيلة أخرى، أو يعيش عيشة الصعاليك المشردين.

سيد القبيلة: والبدوي انطلاقاً من استقلاله القبلي ينكر سيطرة الغريب عليه، ولا يقبلها إلا مكرهاً، حتى إذا أصاب فرصة انتفض عليه وأزاله، كما انتفض بنو أسد على الملك الكندي<sup>(٢)</sup>، وعمر بن كلثوم على عمرو بن هند. ولكنهم يذعنون لسيد منهم، إذا رأوا في سيادته خيراً لهم، فكان لكل قبيلة سيدها يجمع شملها ويقودها في الملومات العvisية. والسيادة لا تستقر طويلاً في بيت واحد وذلك للأناية الموجودة في نفس الأعرابي، ونزوعه الدائم إلى المنافسة، إذ لا شيء يمتع نفس البدوي مثل هذا التبدل المتوالي في الرؤساء، فإنه يقطع بذلك تلك الوتيرة الواحدة التي تجري عليها الحياة في الصحراء، فكانت السيادة تنتقل في القبيلة الواحدة من بيت إلى آخر وقلما تعددت في بيت واحد، وهم مع ذلك متنافسون فيها، وقل أن يُسلم أحدهم الأمر لغيره، ولو كان أباه، أو أخاه، أو كبير عشيرته، إلا في الأقل النادر،

---

(١) سيئاته.

(٢) عمرو بن حُجر.

فيتعدد الحكام منهم والأمرء، وكان تعددها من مفاخرهم .  
واشرف البيوت عندهم بيت تتابعت فيه رئاسته آباء ثلاثة، ثم  
اتصلت بالربع، فيسمى الكامل، والبدوي في عنجهيته وجهه  
للرئاسة لا يخضع لمن هو في مستواه، وإنما يخضع لمن هو  
أقوى منه، وعلى الرئيس أن يتحلى بصفات محمودة، لتحقيق له  
السيادة في قبيلته، وكانت من أجل هذه الصفات، الغنى والكرم  
والحلم والشجاعة والفصاحة . كما احببت العرب بالرجل الخفة  
والنشاط، لذلك كرهت فيه أن يكون سميناً مكتنزاً، لأنهم رأوا  
في السمن والاكتناز آثار النعمة والترف، والركون إلى الكسل  
والخمول والدعة . وأحبوا فيه أن يكون نحيلاً خفيف اللحم، من  
أثر السهر، وسرى الليل وسير النهار، واقتحام الأهوال، وطبي  
الرمال، والصبر على المكاره ساعة النزال .

المرأة: وعكس هذه الصورة التي أحبوها في الرجل كان  
يُستحب في المرأة . كانوا يصورونها وقد تراكم عليها اللحم  
والشحم، فهي لا تكاد تقوى على حمل جسمها . وكانوا  
يرون أن هذا السمن مظهر الترف والنعمة . فالمرأة المترفة  
يحميها رجل قوي، يستطيع أن يدفع عنها كل عدوان،  
ويكفيها أن تمتهن وتهان، ويجلب لها الثروة والمال من كل  
مكان . كما أحبوها أن تكون بيضاء اللون، سوداء الشعر،

مديدة القامة، دقيقة الخصر، عظيمة الأرداف، لها وجهٌ ناعم مصقول، وشعرٌ حالك مفتول، وحاجبان دقيقان مقوَّسان، وعينان كمثلي عيون الطيبي<sup>(١)</sup>، وفمٌ رقيق صغير، وشفتان حمراوان كالورد، وعنق ناهضة بيضاء، وصدر واسع عريض فيه ثديان نافران صلبان، وردف ثقيل قائم كالكتيب من الرمل، وفخذان أبيضان، وساقان ممتلئتان . . . والبدوي ينظر إلى المرأة كأداة للذة والنسل يريد منها أن تلد له غلماناً ينافس بهم غيره من الناس، والمنافسة بكثرة البنين من عاداتهم لأن الصبي يُرجى للذود<sup>(٢)</sup> عن الحمى<sup>(٣)</sup>، وإحياء الذكر، وبه يتسلسل النسب، فكانوا يكرهون ولادة البنت، وربما تشاءموا بها فوأدوها، وعُرف الوأد في قبائل العرب قاطبة، بيد أنه لم يكن شاملاً، حتى جاء الإسلام فأبطله. ولقد بلغ من تمكن صورة الشراسة والعنف في نفوسهم وقتذاك، أنهم كانوا يزعمون أن المرأة إذا حملت، وهي مكروهة على ذلك، كان ابنها أنجب. ولهذا كان الرجل منهم إذا أراد أن ينجب من زوجته أغضبها. وهم يقولون في ذلك (إن ولد المذعورة لا يطاق). وكان يهمهم تزويج الحرة البيضاء، لأنها كانت

---

(١) بقر الوحش.

(٢) للدفاع.

(٣) عن الديار أو الوطن.



عرضة للسبي، فإذا صارت في كنف زوج، وضمها حماه، كانت غِلاً<sup>(١)</sup> في عنقه. وقد تُخَيَّرُ الفتاة في أمر زواجها إذا كانت فطنة رشيدة. وكان البدو يتزوجون صغاراً نظراً لطبيعة أَرْضهم ومناخها ولرغبتهم في البنين. فكان الفتى منهم يتزوج في الخامسة عشرة، والفتاة في العاشرة وربما قبل بلوغ هذا السن. وكانوا يرغبون في زواج البعداء ليتألفوا اعداءهم بالمصاهرة، ويكثروا الأحلاف، وهم إلى ذلك يعتقدون أنه أنجب للولد وأبهى للخلفة، كما كانوا يجتنبون زواج الأهل والأقارب، ويرونه مضرّاً بخلق الولد ونجابته.

ويخطب البدوي إلى الآخر ابنته، فيصدقها ثم يُعقد له عليها. وله حق تعدد الزوجات مقدار طاقته، إلا إذا اشترطت المرأة عليه عدم التعدد، وتعاقدا عليه، وكانوا لا يجمعون في الزواج بين الاختين، ولا بين المرأة وابنتها، ولكنهم اسْتَحْلَوْا زواج امرأة الأب، فأبطله الإسلام، وسماه زواج المقت لأنه ممقوت. وربما تزوج بعضهم نساء بعض في غاراتهم وغزواتهم بلا عقد، أو ربما ذهبت المرأة إلى معاشرة عدة رجال في وقت واحد، فيأتي الولد لا يدري مَنْ أبوه، فتلحقه أمه بمن تريد من الرجال الذين عرفتهم، ولا يرفضه

---

(١) قيداً.

الرجل وخاصة إذا كان ذكراً، أو يلجأون إلى القيافة<sup>(١)</sup> ويلحقون بأقربهم إليه شَبْهاً. كما كانوا يفاخرون بالولد إذا كانت أمه حرة بيضاء زاكية الأصل، ويسمونها أُمّ البنين إذا ولدت ثلاثة أو أربعة من الذكور أو أكثر، ويفاخرون بالأخوال، ويشبهون الأولاد بهم دلالة على النسب الحر، أما الأُمّة فتكون على الغالب سوداء، ولا يُعرَف بأبنائها إلا بعد أن تظهر نجابتهم، كما كان للزوج عندهم حق الطلاق دون المرأة، إلا إذا هي اشترطته في عقد الزواج، وكان يحق للزوج أن يسترجع امرأته بعد تطليقها ثلاثاً، وإذا أرادت المرأة تطليق زوجها حوّلت باب بيتها (خيمتها) إلى الجهة المقابلة، فيعلم عندئذ زوجها أنها طلقته، فلا يجوز له بعد ذلك دخول خباتها، وكانت إذا مات زوجها تربّصت سنة معتدة<sup>(٢)</sup> لا تخرج من بيتها، ولا تمس ماءً، ولا تُقلم ظفراً، حتى إذا استكملت عدتها خرجت على الناس بأقبح منظر واقدره. والعدة للمرأة هي انتظار ليعلم فيها هل المرأة حامل من زوجها المتوفي أو لا. وكانت نساء العرب يصحبن رجالهن إلى الحرب فيحضضنهم على الصبر في مواقف القتال، ويمنعنهم أن يلوذوا بالفرار، كما كانوا يداوّن الجرحى، ويقدمن لهم الزاد

(١) معرفة نسب الولد من خلال أعضائه وهيشه.

(٢) جعل الإسلام عدة المرأة أربعة أشهر وعشراً.

والماء ويطعمن الجياد. وللمرأة حق الجوار كما للرجل، وعلى الرجل أن يحمي امرأته واخته وأمه وجارته كما يحمي جاره هو.

كما عُرفَ منهم غير واحدة بالشجاعة، والفصاحة وقول الشعر، وحسن الرأي والحكمة والعرافة. ولكنهن كنَّ مُستضعفات في الجملة يحتقر الرجال مكانتهن، ويتشاءمون بولادتهن، ويسئون الظن بأخلاقهن، فيعتونهن بالكيد والمكر والخيانة والخداع.

غزواتهم: كان للعرب حروب كثيرة في جاهليتهم، أو قل هي غزوات غير منظمة، ومن عاداتهم أن يجعلوا من أيامها مادة لفخرهم، وإخزاء أعدائهم، وكثيراً ما كانت تقع من أجل النهب والسلب أو المزاحمة على الماء والكلاً، أو لأسباب تافهة، كحرب البسوس التي نشبت لمقتل ناقة من الإبل، وكان الدافع إليها الحفاظ على الجوار؛ وحرب داحس والغبراء<sup>(١)</sup> التي أفضى إليها التنافس في الرهان بين سيدي القبيلتين. وربما وقعت الحرب لدفع عدو غريب كحرب ذي قار التي جرت بين الفرس وبني بكر، وحروب اليمن والاحباش وهذا النوع من الحروب نادر، وإنما كانت حروبهم في الغالب

---

(١) اسما حصان وفرس.

داخلية قبلية، حتى إذا ما خرجوا بها عن شبه جزيرتهم فلم إلى تخوم العراق والشام ليتقاتلوا نيابة عن كسرى وقيصر. وكان البدوي يتحامي القتل جهده، لأن تقاليدهم تقضي بأخذ الثأر أو دفع الديات الثقيلة؛ وقد لا تغسل الديات الأحقاد، لما في قبولها وترك نداء الدم من غضاضة، ثم لاعتقادهم أنه إذا قُتل الرجل منهم، ولم يؤخذ بثأره، خرج من رأسه طائر يشبه البوم يسمعونه الهامة أو الصدى، فلا يزال يصيح، اسقوني! اسقوني! حتى يُقتل القاتل أو أحد أقاربه، فشرعة أخذ الثأر خففت حوادث القتل وفرضت على الموتور أن يحرم على نفسه أحب الأشياء إليه كالنساء والخمر والعسل والطيب، لا تحل له هذه الأشياء إلا بعد أن يأخذ بثأره. ولم تعرف القبائل الجيوش المنظمة، بل كانت جيوشهم عبارة عن أشتات يقودها سيد القبيلة أو من ينوب عنه. وكان من عادة القبيلة أن تشترك كلها في الحرب للدفاع عن مالها ونسائها وأولادها؛ وقلما عرفوا قتال الزحف والثبات، بل كان الفرّ في حروبهم ملازماً للكر، وكان سلاحهم السيف والرمح والقوس والمِجن<sup>(١)</sup>، ويلبس فرسانهم الدروع والمِغافر<sup>(٢)</sup>. وكانوا

(١) الترس.

(٢) جمع مغفر أو هي مغفرة: زردٌ يُنسج من الدروع على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة.

يرفعون الرايات، ويتغنون بالشعر ويرتجزون محمسين أنفسهم، حتى إذا تمَّ لهم النصر، عادوا بالأسلاب والسبايا فاقسموها فيما بينهم، وأما الأسرى فمصيهرهم إلى القتل أو يقدموا الفداء، ولا يطلقون الأسرى إلاَّ بعد أن يجزوا نواصيهم<sup>(١)</sup>، إمعاناً بإذلالهم.

**معايشهم:** كان عرب البادية يعتمدون في عيشهم على رعاية الماشية، ثم على الغزو والصيد والقنص وحراسة القوافل. وأما أهل الحضر فإن وسائل الرزق كانت أوفر لديهم، فقد عرفوا أركان الحضارة والعمران الثلاثة وهي: التجارة والزراعة والصناعة. وكانت اليمن في مقدمة البلاد العربية تحضراً وخصباً، فانبسطت تجارتها، ونمت زراعتها، وتوافرت لها الصنائع المختلفة ولا سيما الوشي والحياكة. وعرب الشمال رغم بداوتهم وخشونة عيشهم فإنهم لم يُحرَموا نعمة التجارة في حواضرهم، فقد كانت مكة في توسطها الطبيعي ومقامها الديني، محطة لقوافل اليمن والشام، وسوقاً تجارياً رائجة تُعرض فيها بضائع التجار. واشتهر أهلها برحلاتهم التجارية، فكانت لهم رحلتان في السنة: رحلة الشتاء، ورحلة الصيف إلى كل من الشام واليمن. كما أن

---

(١) جمع ناصية وهي مقدمة شعر الرأس.

أهل يثرب عرفوا التجارة ولا سيما اليهود منهم . وكانت لهم أسواق تُقام في أوقات معلومة للبيع والشراء ، أعظمها سوق عكاظ . وكان عرب الحيرة يتجرون مع الفرس ، ويتولون حماية قوافلهم في عرض القفار .

وكان للزراعة شأن في بعض الحواضر الشمالية كالطائف ويثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء . أما الصناعة فإن الأعراب كانوا يحتقرونها ويعيرون أصحابها . فهم أبعد الناس عنها . ومع ذلك فقد ألموا بأشياء منها كالحدادة والنجارة والخياطة والصياغة ، وكانت هذه الصناعات في القرى المعمورة كمكة ويثرب والطائف .

أديانهم : وكان العرب في جاهليتهم على أديان مختلفة ، ومذاهب متعددة ، يؤلهون الأصنام والكواكب ، ويعبدون الله ، ويخلطون المذاهب بعضها ببعض ، مازجين التوحيد بالشرك ، والعقائد السماوية بالعقائد الوثنية . وهم إلى ذلك ليسوا على دين ثابت أو عقيدة مكيئة ، شأنهم في ذلك شأن حياتهم المتنقلة المضطربة . وكانت الوثنية في القبائل أعم وأكثر انتشاراً ، والأصنام منصوبة في كل ناحية من نواحي الجزيرة ، ولا سيما الكعبة ، وتزعم الرواية العربية أن أول من دعا إلى عبادة الأصنام هو عمرو بن لحي ، وكانوا على بقية من دين إسماعيل فأفسد بذلك عقائدهم . وأما الطواغيت

الكبار فهي ثلاثة: اللات وهي تحريف لفظة الإلهة، والعزى، ومناة<sup>(١)</sup>. وكانت كل واحدة منها لمصر من أمصار العرب، فاللات لأهل الطائف، والعزى لأهل مكة، ومناة لأهل المدينة. وكانت العرب تعظم هذه الربات، وتجعلها بنات الرحمن، وتقصدنها من كل صوب، وأما اصنام الكعبة فكثيرة منتشرة حولها وفي داخلها، وكان أعظمها هُبَل<sup>(٢)</sup>. وكانوا يستقسمون عنده بالقداح، ويستخيرونه في أمورهم وأعمالهم. وكانت الكعبة مزاراً لأكثر القبائل، يحجون إليها، ويكسونها الحلل والدياج، وينحرون عندها متقربين، ويريقون دم الذبيحة على أوثانها، وكانت السيادة عليها لقريش دون سواها. وكان في العرب طائفة من عبدة الكواكب كحمير قبل أن يتهودوا، ومنهم من عبدة النار، أو القائل بالثنوية، أو بالدهرية. ومنهم من أحل زواج الأب بابنته. وهذه العقائد سرت إليهم من الفرس والمجوس وما عندهم من معتقدات مزدكية ومانوية.

على أن العرب، مع إشراكهم وتعدد معبوداتهم، كانوا

---

(١) مناة هي أقدم الطواغيت الثلاثة وكانت منصوبة على ساحل البحر الأحمر بين مكة والمدينة، تعظمها الأوس والخزرج، وتسديها هذيل وخزاعة.

(٢) وهو صنم من عقيق أحمر على صورة إنسان، مكسور اليد اليمنى، أدرته العرب كذلك فجعلوا له يداً من ذهب.

يميلون في جملتهم إلى التوحيد، ويتقربون إلى الله الواحد بعبادة الأصنام والكواكب فيجعلونها ذرائع للوصول إليه .

عقائدهم : كانت العرب تؤمن بوجود الجن والعفاريت، وبمخالطتها للإنس في السُكنى والاستهواء والمؤاكلة والزواج، ويؤمنون بزجر الطائر، يتفاءلون به إذا سنح<sup>(١)</sup> ويتشاءمون إذا برح<sup>(٢)</sup>، ويؤمنون أيضاً بالكهانة<sup>(٣)</sup> والعرافة<sup>(٤)</sup> والهامة، ويعوذون أطفالهم بسن ثعلب وسن هرة خوفاً من الخطفة والنظرة، كما يتعوذون من الجن بالأدعية وسواها .

علومهم : أَلَمُ العرب في بداوتهم ببعض العلوم التي يحتاجون إليها في حياتهم الفطرية، فقد عرفوا شيئاً من الطب والبيطرة، وكانوا يداوون مرضاهم بالعقاقير والكَيِّ، والحجامة والأشربة وخصوصاً العسل، وربما استعملوا السحر والرُّقي والتعاويذ لإبراء الملسوع وإخراج الجن والشياطين . وكان أطباؤهم في الأغلب من الكهان والعرافين . كما عرفوا شيئاً من علم النجوم ومهاب الرياح بكثرة تتبعها والنظر إليها لأنهم كانوا يهتدون بها في أسفارهم، ويستدلون على سقوط

---

(١) مرء عن اليمين .

(٢) مرء عن اليسار .

(٣) علم الغيب .

(٤) علم المستقبل أو الماضي .



الغيث. وكانت لهم معرفة بالأنساب والأيام والاعخبار  
والأساطير، وبالقيافة وهي الاستدلال بهيئة الانسان وأعضائه  
على نسبه، والاستدلال بآثار الأقدام على أصحابها،  
وبالكهانة، وهي معرفة الأمور المستقبلية وتعبير الرؤى  
والأحلام، وبالعرافة، وهي مختصة بالأمور الماضية. وكان  
أشهر الكهان عندهم شبق وسطيح، وهما من أهل الأساطير،  
فقد زعموا أن شقاً وسطيحاً كانا من أبناء الخالات، وكان شبق  
نصف إنسان من أعلى إلى أسفل، وسطيح جسداً مُلقى لا  
جوارح له، يدرج كالثوب، ووجهه في صدره، وليس له رأس  
ولا عنق، ولا يقدر على الجلوس، إلا إذا غضب، فإنه ينتفخ  
ويجلس. وكانت ولادتهما في يوم واحد، وقيل إنهما عاشا  
ستمائة سنة، وقيل أن سطيحاً عاش سبعمائة سنة ومات في زمن  
كسرى أنوشروان. ومن أشهر العرافين عندهم عراف نجد،  
وعراف اليمامة. وكان عرب اليمن والحواضر المتاخمة أوسع  
علماً وحضارة من عرب البادية لاتصالهم بالفُرس والروم  
والسريان.

## لغة العرب وأدبهم في العصر الجاهلي

اللغة: اللغة العربية هي إحدى اللغات المشتقة من الأصل السامي، ويوجد بينها وبين شقيقاتها مشابهاة كثيرة. وكانت في العصر الجاهلي على لسانين، اللسان الحميري في الجنوب، والعدناني في الشمال، وكل منهما يغير الآخر في أوضاعه وأحكامه.

واللسان العدناني هو الذي نستعمله في الكتابة، وبه جاء الأدب الجاهلي، ولم يأتنا أدب بلسان حمير. وكانت مكة بما لها من تأثير ديني وتجاري، مجتمعاً للقبائل العربية، على اختلاف لغاتها، وكانت تقام الأسواق في عكاظ وغيرها، فنشأت عن طريق هذا الاتصال المباشر وغير المباشر لغة أدبية مهذبة عُرفت بلغة قريش، كما أخذ العرب ألفاظاً من اللغات الأعجمية وعربوه ليسدوا به ثلثة لغتهم، وهذه الألفاظ الدخيلة على اللغة أخذت في الغالب من الفارسية والرومية والهندية، وأكثرها يختص بالأدوات والمنسوجات والشجر والعقاقير، ومن العبرانية والسريانية والحبشية، ولا سيما الألفاظ التي لها علاقة بالدين، ومن الطبيعي أن تكون لغة

الجنوب المتحضر أكثر اتساعاً لمعاني الاجتماع والعمران من لغة أهل الوبير في الشمال، غير أنها لم تصل إلينا في جملتها. واللغة الجاهلية قوية التعبير، كثيرة الإيجاز، لا تخلو من خشونة البداوة وغبابة اللفظ، حافلة بضروب الكناية والمجاز، تسلس للشعر والوصف والخطابة.

الكتابة في الجاهلية: غلبت الأمية على العرب في جاهليتهم، ولا سيما عرب البادية، لأن حياتهم الفطرية المضطربة في حدودها السياسية والاجتماعية لم تتسع لصناعة الكتابة التي تنشأ وتزدهر بنشوء الجماعة المنظمة المستقرة. بيد أن سكان الحواضر من أهل اليمن اصطنعوا الكتابة لما هم عليه من استقرار يبعث على التقدم والعمران. وعرب الشمال لم يُحرموا أيضاً فن الكتابة رغم شيوع الأمية فيهم.

الأدب الجاهلي: أدب شفهي نقلي، كُتب له السيرة والاستمرار بواسطة التداول، فهو يحفظ في الذاكرة لا في الأوراق، حيث تكثر الرواة في العصور الشفهية فتقوم مقام الكتب والدفاتر. وكان لكل شاعر في الجاهلية رواية أو أكثر، يحفظ شعره ويرويه للناس، وعن طريق الرواية دُونَ الأدب الجاهلي، بعد ما شاعت الكتابة في العصور اللاحقة، ولكنه لم يصل إلينا سالماً، فقد ضاع منه شيء كثير لم ينقله الرواة،

أو ضاعت روايته؛ كما دخل عليه نُحل كثيرة، لأسباب عديدة منها المنافسات القبلية، ومنافسات الرواة في الحفظ، وحرصهم على التكسب والحظوة به. والأدب الجاهلي في معظمه قائم على الشعر، لأن أكثر ما وصل إلينا من النثر مشكوك بأمره، هذا فضلاً على أن مادته غير كافية للدرس، هذا مع العلم أن لغة النثر في الشعوب البدائية تكون محاكية لغة الشعر في مجازها وخيالها وموسيقى ألفاظها. والشعر في أول أمره لم يكن إلاً أسطراً لا ضابط لها، يرتبها البدوي على هواه ويتغنى بها ويحدو إبله. ومن طبع الإنسان أن يميل إلى الغناء في حزنه وسروره، في خوفه وأمنه، في راحته وتعبه. ولعل السجع الذي كان ينطق به كاهن القبيلة وشاعرها هو المظهر الفني الأول للأدب العربي، بل هو المادة المشتركة بين الشعر والنثر. ثم أخذ الشعر بعد ذلك ينفرد بأوزانه وقوافيه، ويتفق الرواة على أن عهد المهلهل وامرئ القيس هو عهد ازدهار الشعر، وظهور القصائد الطويلة واستقرار الأسلوب التقليدي. لأن بدء تاريخ النهضة غير معروف وذلك لضياغ الآثار التي وجدت قبل الشطر الأخير من القرن الخامس، ويتفق المؤرخون الاقدمون على أن الشعر نهض أولاً في ربيعة، ثم تحول في قيس عيلان، ثم صار زمن النبوة إلى قریش والانصار بعامل الحروب التي حدثت بين

المسلمين الأوائل والمشرّكين. وهكذا لبث الشعر طوال  
العصر الجاهلي محصوراً في البادية لا يتنفس خارج الجزيرة  
إلا بشعراء منها يقصدون الشام أو العراق لمدح الغساسنة  
والمناذرة، ولم يُعرف في الحيرة غير شاعر واحد هو عدي بن  
زيد، وأصله من عرب الجزيرة وعلى وجه التحديد من تميم.

## الشعر الجاهلي

ميزة الشعر الجاهلي: إذا ما أمعنا النظر في الشعر الجاهلي تبين لنا أن له أبواباً رئيسية مستقلة، هي: الفخر والحماسة، والمدح، والهجاء، والرثاء؛ وأغراضاً إضافية غير مستقلة وإنما تأتي عَرَضاً أو بشكل ثانوي، كالغزل، والطبيعة، والخمریات، والحكم والمواعظ.

ولكن الوصف أعظم ركن يعتمد عليه الشاعر في مختلف أبوابه وأغراضه، لما له من عين نافذة متيقظة شديدة الملاحظة دقيقة المراقبة، متنبهة لكل ما يحيط بها وما يدور حولها؛ فإذا أراد الشاعر منهم أن يصف شيئاً ما، أحاط بالموصوف من أظهر نواحيه، أو أحاط بناحية منه يطلبها دون غيرها، مشبعاً موصوفه على الحالين، مخرجاً عنه صوراً حسية رابية الملمس تنقله أحياناً نقلاً آلياً مهذباً، وتخلقه حيناً خلقاً شعرياً ذكياً. والشاعر لا يصف إلا ما يؤثر في نفسه مما يعايشه ويسمعه ويراه، أو مما يتوهمه فيحسه وتنطبع له صورة بليغة في خياله.

ثم يخرج من الوصف إلى قصص قصيرة يحدث بها عن

مغامراته الغرامية، أو عن معاركه وغزواته، أو يروي شيئاً من الأخبار والأساطير مما انتقل إليهم من الشعوب المجاورة، أو ممن نشأ في باديتهم.

ولكن خيال الجاهلي لم يتسع للملاحم والقصص الطويلة لانحصاره في بادية متشابهة الصور، محدودة المناظر من جهة، ثم لماديتهم وكثافة روحانيتهم، ولفرديتهم وضعف الروح القومية والاجتماعية فيهم من جهة أخرى. أضف إلى ذلك كله قلة شأن الدين في نفوسهم وقصر نظرهم عما وراء الطبيعة، ولهذا ترى الجاهلي منهم لم يلتفت إلى أبعد من ذاته المحدودة، ولا إلى عالم غير العالم المنظور، ولهذا لم تتولد عندهم الأساطير الخصيبة كما تولدت عند غيرهم من الشعوب البدائية. كما لم يكن لأصنامهم من الفن والجمال والإبداع والإيحاء الروحي والنفسي ما يبعث الوحي في النفوس شأن أصنام اليونان والرومان مثلاً؛ فقليل منهم من ذكر أوثانه أو استوحاها من شعره، كما أن مجتمعهم لم يساعدهم على التأمل الطويل وربط الأفكار وبعْد آفاق الخيال، وذلك لاضطراب حياتهم برحيلهم المستمر وبتنقلهم الدائم، فجاء نَفْسُهُمْ قصيراً كإقامتهم، وخيالهم متقطعاً كحياتهم، صافياً واضحاً كسمائهم ومسطوح أنوار شمسهم، قريب التصور، داني الفكرة، محدود الألوان لطبيعة

صحرائهم . وكانت ثقافتهم الأدبية فطرية خالصة يتغذى بعضها من بعض . وجاءت حروبهم وغزواتهم محدودة الأثر لا تتجاوز البادية والقبيلة ، فلم يكن من شأنها أن تبدع ملحمة كملحمة هوميروس في حضارة طروادة . فلهذه الأسباب مجتمعة اقتصر شعرهم على أغراض وجدانية تغمرها الذكريات ، متبورة القصص ، يتواطأون عليها بأسلوب متشابه الاتجاه متداول المعاني والتعابير ، فيستهلون على الغالب ، ولا سيما القصائد الطوال ، بذكر الديار الخالية ، والوقوف على الأطلال للبكاء أو للتحية والسؤال ، معددين المواضع التي توصل إليها أو تحيط بها ، متشوقين إلى أحبتهم يوم كانوا يعمرونها ، مشبين بهم مستعبدين ذكرى فراقهم . ثم يرحلون بعد ذلك على ناقاتهم مفرجين بها همهم ، قاصدين الحبيبة أو الممدوح ، فيصفونها عضواً عضواً بدقة متناهية ، ويصورون سرعتها ونشاطها ثم ينتقلون إلى المدح أو الفخر أو غير ذلك من الأغراض الشعرية ، فيجتمع لهم في قصيدة واحدة عدة أغراض ، ويكون انتقالهم من غرض شعري إلى غرض آخر في أكثر الأحيان اقتضاباً ووثباً ، أو بواسطة كلمة أو جملة كأن يقول مثلاً دَعْ ذا أو عُدْ عن ذا . والجاهلي صادق في الكلام عن حياته وأحواله ومجتمعه ، صادق في مدحه وهجائه إلى حد لا يسلم معه من الغلو ، ولكنه كاذب في كثير من مفاخره ،



مغالٍ إلى حد الافراط في مراثيه ؛ ولغة الشعر الجاهلي قوية المدلول في ألفاظها الوضعية، سواء كان التعبير حقيقياً أو مجازاً، خشنة، كثيرة الغريب، وهي إلى ذلك متوافرة الصور في تشابيهها الحسية وما يختلف إليها من استعارات وكنيات قليلة الاحتفال بأنواع البديع؛ جارية مع الطبع بريئة من التكلف، ففوة الشعور الفني وحدها هي التي تهدي الجاهلي إلى اختيار ألفاظه وإخراجها من معدن واحد، فتأتي محكمة التركيب متماسكة، تعبّر بتموجاتها وأجراسها أصدق تعبير عن الحالة التي يحسها في نفسه ويتصورها في خياله.

وفي تشابيهه وكنياته واستعاراته دلالات بينه على حياته وطبيعة أرضه، فأكثرها مستمدة من الصحراء، نباتها وحيوانها، ومن مرافقها المحدودة ومعيشة أهلها، ومن عاداتهم وعقائدهم وأساطيرهم. وقد ينحط إلى تشابه ننكرها في زماننا، ولا تستنكرها فطرتنا، كتشبيه امرئ القيس أصابع محبوبته بالأساري<sup>(١)</sup>. وتشبيه طرفة نفسه بالبعير المعبد<sup>(٢)</sup>. وكانوا من عاداتهم إذا شبهوا، يتركون المشبه وينصرفون إلى المشبه به، ليصفوه وصفاً دقيقاً، ومن المأنوس في شعرهم

---

(١) الأساري: دود أبيض الابدان، أحمر الرؤوس، مفردها أسروع ووجه الشبه بياض الأصابع وطرادتها وحمرة أطرافها بالخضاب.

(٢) أي الجمل المطلي بالقطران لجريه.

نداء الصاحب والصاحبين، والاستفتاح بالأ، وإدخال ولقد وواو رب، والقسم بلعمري، كما أن معانيهم لا تخلو من غموض، ويعود ذلك إلى غرابة الألفاظ وما فيها من إيجاز وحذف، أو لما تتضمنه من تلميحات إلى حوادث تاريخية، أو إلى عقائدهم وعاداتهم مما لا تُدرك مقاصده إلا بمعرفة حياتهم وأخبارهم. ولكن الغموض الفني قليل عندهم لمادية ألفاظهم، وبعدها عن الرمز والتصوف؛ ثم لضعف روحانيتهم، وضيق خيالهم، ودنو تصورهم وعنايتهم بسرد الأخبار وإظهار الحقائق المحسوسة، واعتمادهم على الأساليب الخطابية الواضحة والحكم والامثال البديهية.

وجاءنا عنهم من الأوزان خمسة عشر بحراً ضبطها الخليل بن أحمد الفراهيدي، وزاد عليها تلميذه الأخفش بحر الخبب أو المتدارك؛ وأكثر ما نظموا على الأبحر الكثيرة التفاعيل، كالطويل والبسيط والكامل، ثم على الأبحر اللينة التي تصلح للأغراض الوجدانية العاطفية، كالوافر والرملة والخفيف. كما لم يخلُ شعرهم من زحاف<sup>(١)</sup> مستكره نستقبحه اليوم ونأبى استعماله. وأما منظومهم فهو قصيد ورجز، وأراجيزهم في الغالب قصيرة، وهي مثل قصائدهم

---

(١) الزحاف: تغير يحدث في حشو البيت غالباً وهو أنواع.

تجري على قافية واحدة ووزن واحد. ويستحسن عندهم  
تصريح المطلع أو تقفيته. ولا نعوزهم سلامة الطبع التي  
ترشداهم إلى اختيار القافية الملائمة للبيت في معناه ولفظه.  
ولكنها لم تخلص من عيوب مذمومة كالاقواء<sup>(١)</sup>،  
والاكفاء<sup>(٢)</sup>، وأنواع أخرى مكروهة من السناد<sup>(٣)</sup>. وبيت  
الشعر عندهم صورة لتقطع أفكارهم وخيالاتهم، يستقل  
بمعناه ولا يتعلق بما يليه، وهذا الاستقلال جعل القصيدة  
عرضة للتشويش في مواضع جمّة، يحذف منها ولا يُحسُّ  
نقصانها ويُبَدَّل ترتيب أبياتها ولا يظهر خلل فيها.

على أن الشعر الجاهلي المستقل ببيته، لا بنيانه يرتفع  
أحياناً إلى غاية الجمال، وهو في الجملة أخلص الشعر  
القديم جوهرأً، وأصدق شعوراً وتعبيرأً وإيحاءً، يأتي به  
الشاعر بقوة الاحساس الفني، على فطرته وسجيته وصفاء  
نفسه، بالاضافة إلى ما فيه من بداوة ووحشية وخشونة.

---

(١) الاقواء: اختلاف إعراب القوافي.

(٢) الاكفاء: اختلاف الحروف في الروي.

(٣) السناد: كل عيب يحدث قبل الروي.

## صدر الإسلام

٦٢٢ - ٧٥٠ م

١ - ١٣٢ هـ

## لمحة تاريخية

النبي محمد ﷺ والدعوة الإسلامية: وُلِدَ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي في مكة سنة ٥٧٠ م وهو عام الفيل عندما هاجم الأحباش الكعبة بقيادة أبرهة الأشرم، أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف من قريش، توفي والده قبل أن يولد، ولم يترك له ولأُمّه من المال إلا خمسة من الإبل، وقطيعاً من الغنم وجارية<sup>(١)</sup>. فكفله جَدُّه عبد المطلب. ثم ما لبثت أمه أن ماتت وهو فتى رضيع، ومات جَدُّه عبد المطلب، فكفله عمه أبو طالب والد علي (كرم الله وجهه)، وكان قليل المال كثير العيال. فنشأ محمد ﷺ يتيماً في كنف عمّه، حتى إذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره تزوج خديجة بنت خويلد، وهي في الأربعين من عمرها،

---

(١) هي أم أيمن حاضنة النبي.

وكانت من أغنياء قريش واشرافهم، فأمدته بمالها فأيسر واتسعت حاله.

وكان محمد ﷺ يميل إلى العزلة، ويذهب إلى غارٍ قرب مكة يُدعى غار حراء فينفرد فيه مفكراً بأحوال قومه ومتعبداً. وبينما هو نائم ذات ليلة في الغار، نزل عليه الوحي، وكان قد بلغ الأربعين، فأخبر زوجته خديجة بما سمع ورأى، فسارعت إلى قبول دعوته، ثم تبعه بعدها ابن عمه علي بن أبي طالب وكان لا يزال فتىً حدثاً، ثم صديقه أبو بكر.

ولكن قومه أنكروا دعوته، وسخروا منه وقالوا: «ساحرٌ أو مجنون». ثم أخذوا يضطهدونه وأتباعه، ولما يش منهم، حوّل وجهه شطر الطائف<sup>(١)</sup> ودعا أهلها، فإذا هم أقسى من قريش، وأغروا به سفاءهم فرجموه بالحجارة. ثم علم أن قومه يريدون الايقاع به، فهاجر من مكة إلى يثرب مستخفياً، فلقي في يثرب من أهلها قبيلتي الأوس والخزرج اتباعاً يناصرونه فسُموا «الأنصار» كما سُمي الذين هاجروا مع النبي «المهاجرين» وسُميت يثرب «المدينة» أي مدينة الرسول. ومن ذلك التاريخ يتبدى التاريخ الهجري، أي سنة ٦٢٢ م. وساء القرشيون أن ينجو النبي ويحتمي في يثرب، وان

---

(١) الطائف: بلدة في الحجاز كانت لبني ثقيف.

يلاقي هناك أنصاراً وأعواناً، فناصروا أهلها العداء، وقابلهم هؤلاء بالمثل، فقطعوا الطرق على قوافلهم، وابتدأت الغزوات يتبع بعضها بعضاً، وكان النصر في أكثر هذه الغزوات حليف المسلمين، حتى قُت أخيراً في عَصْدَ المشركين، فغزا النبي مكة بعشرة آلاف مقاتل فافتتحها مسلماً سنة ٦٣٠ م أو ٩ هـ. ووقعت قريش في يده، فأمنهم وأسلموا عن بكرة أبيهم، ثم دخل الكعبة وأزال منها الأصنام والصور والتماثيل، وأخذ العرب يدخلون في الإسلام أفواجا بعد أن أسلمت قريش وذلك لزعامتها بين القبائل، فتم النصر للنبي، وبذلك بنى حجر الزاوية في الوحدة العربية الإسلامية، والتي ظل يسوسها حتى قبض يوم الاثنين في ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ. أو ٨ حزيران سنة ٦٣٢ م، وكانت وفاته بالمدينة وفيها قُبر.

هذا ما كان من أمر النبي ﷺ والدعوة الإسلامية، والتي كان كعب في مقتبل الشباب عند ظهورها واشتهار أمرها.

## كعب بن زهير

٦٤٥ م - ٢٦ هـ

وكعب بن زهير واحد من أبناء هذه البيئة الصحراوية وأحد شعرائها البارزين، عاش شطراً من حياته في الجاهلية، وعاش الشطر الباقي في الاسلام، فهو بالتالي أحد الشعراء المخضرمين<sup>(١)</sup>، وقد رأينا مميزات وطبيعة العصر الجاهلي، وألقينا نظرة على خصائص ومميزات الشعر في هذا العصر، ونرى الآن أن نلقي الضوء على طبيعة وخصائص ومميزات الشعر المخضرم، لكي نُعطي فكرة واضحة عن الشعر عند الشعراء المخضرمين بصورة عامة وعند كعب بن زهير بصورة خاصة، ولنعلم نقاط الاتفاق والافتراق بين شعر هؤلاء وشعر العصر الجاهلي.

مميزات الشعر المخضرم: إننا لا نجد فرقاً بين الشعر الجاهلي والشعر المخضرم من حيث الإيجاز وقوة التعبير، وطريقة النظم، وتعدد الموضوعات، وبراعة الوصف إلى غير

---

(١) الشاعر المخضرم: هو الذي عاش في عصرين مختلفين.

ذلك مما مرَّ بنا أثناء كلامنا عن الشعر الجاهلي، لأن الشعر المخضرم جاهلي في أصله.

إلاً أننا نجد فيه خصائص جديدة، أهمها تطور اللغة، ورقة اللفظ، ووضوح المعنى، كما يمتاز بتلك النفحة الدينية التي نفحه بها الإسلام بعد ظهوره، فأصبحنا لا نرى فيه يأساً من الحياة، وتبرماً بمصيرها شأن الشعر الجاهلي، بل تلمس به ارتياحاً شديداً إلى نعيم الآخرة، إلى الجنة التي وعد بها الله عباده المتقين. كما اكتسبت اللغة عموماً، والشعر المخضرم خصوصاً تعابير جديدة من القرآن، وألفاظاً لم تكن مألوفة من قبل، كالجنة والنار، والكفر والإيمان، والصلاة والزكاة، الركوع، والوضوء، إلى ما هنالك من الالفاظ والتعابير التي ظهرت بظهور الدين الجديد، ورغم أن هذه الالفاظ كانت معروفة في الجاهلية، ولكنها في أكثرها لم تكن تدل على معانيها المستحدثة في الإسلام، كما اكتسب الشعر نوعاً جديداً وهو الهجاء السياسي، هجاء مرٍّ مقذع أليم. جرى بين شعراء الرسول ﷺ وشعراء قريش والاحزاب.

على أن الشعر أصيب بفتور بعد وفاة الرسول ﷺ، فلم يجد من الخلفاء الراشدين من يشجعه، بل ربما نهوا عنه، وزجروا الشعراء، بيد أن هذا الفتور لا يعني أن الشعر قد



خمدت ناره، وانطفأ أواره، فقد بقي في الشعراء طائفة لم تنصرف عنه، إلا أنه لم يكن له ذلك الازدهار الذي عرفه في الجاهلية أو في حياة الرسول ﷺ. عندما أنكرت قريش عليه دعوته وحاربته مدة تزيد على ثماني سنوات بعد هجرته إلى المدينة، ولم تقتصر الحرب بينهم على السيف وحده، بل كان للشعر فيها شأن كبير. فأخذ شعراء قريش واحزابها يهجون الرسول ﷺ هجاء مرأ، ويسفهون رسالته، ويسخرون منها، ويعيرون تابعيه من الانصار والمهاجرين، مما اضطر الرسول ﷺ أن يحاربهم بسلاحهم، لما يعلمه ما للشعر من التأثير في نفوس القبائل العربية، فأرسل عليهم ثلاثة من شعراء الانصار وهم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وقد أغنت هذه الملاحيات الشعر فنهض نهضة عظيمة، وغزرت مادته وكثر القول بكثرة الشعراء، ولا سيما شعراء قريش، وكانت قبلاً لا تُذكر مع القبائل في الشعر، وبرز من شعرائها أربعة هاجوا الرسول ﷺ وقاوموا شعراءه وهم: عبد الله بن الزُّبَيري، وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب، وعمر بن العاص، وضرار بن الخطاب. ولكن لم يصل إلينا من شعرهم إلا شيء يسير ليس فيه غناء، ولا عجب أن تُطمس أشعارهم وأشعار غيرهم من الشعراء الذين ناصبوا الرسول ﷺ العداء، خصوصاً بعد أن

دخلت قريش في الإسلام، وساد الإسلام الجزيرة العربية، ولا يكاد يُذكر الرسول ﷺ إلا ويذكر معه كعب بن زهير ولا ميته الشهيرة التي اعتذر بها إليه يوم اسلامه.

هويته وحياته: هو كعب بن زهير بن أبي سُلمى المُزني، والده شاعر كبير من شعراء الجاهلية التي طبقت شهرته الأفاق، وقد نشأ كعب في بيئة شعرية صرفه، إذ لم يجتمع في الجاهلية حظٌ من الشعر كما اجتمع لأبيه زهير بن أبي سُلمى، فقد كان أبوه ربعة شاعراً، وخاله بشامة بن الغدير الغطفاني شاعراً، وأخته سُلمى والخنساء<sup>(١)</sup> شاعرتين، وابناه كعب وبُجير شاعرين، وحفيده عقبة بن كعب الملقب بالمضرب شاعراً، وابن حفيده العوام بن عقبة شاعراً مشهوراً روى له زهير ونظم الشعر ففاقه، وأحمل ذكره، في مثل هذه البيئة الشعرية نشأ وترعرع كعب وأخوه بُجير، فأبوه هو أحد الثلاثة المقدمين في الجاهلية وهم: امرؤ القيس، والنابعة، وزهير، وقد اختلف في تقديم أحدهم على صاحبه، أقام والده زهير في بني مُرة معزراً مكرماً مسموع الكلمة، وكثر ماله وتزوج امرأة منهم تُكنى أم أوفى، ثم ما لبث أن جمع بينها وبين ضرة يقال لها كبشة بنت عمار من قبيلة غطفان،

---

(١) الخنساء: هنا غير الخنساء أخت صخر الشاعرة المشهورة.

فولدت له كعباً وبجيراً. نعم هذا هو البيت الذي نشأ فيه كعب، فنشأت معه ملكة الشعر فما كاد يترعرع حتى نظمها، ولكن والده زجره عنه وضربه مخافة أن تكون شاعريته لم تكتمل بعد، فيُروى له من الشعر ما لا خير فيه. على أن الزجر والضرب لم يمنعا كعباً عن قول الشعر، فلبث يقوله غير مرتدع حتى ضاق والده ذرعاً به، فأردفه<sup>(١)</sup> خلفه على ناقته وانطلق به إلى الصحراء، وأخذ يقول البيت، ويطلب إلى كعب أن يكمله، فلا يتوانى كعب عن اكماله، ويجيزه على أحسن وجه؛ فوثق أبوه عندئذ بنضوج ملكته الشعرية، وأذن له بقول الشعر. فكان من المبرزين حتى أن الخطيئة وهو فن في ميزان الشعر، رجاء أن يذكره في شعره قائلاً له: يا كعب قد علمت روايتي لكم أهل البيت<sup>(٢)</sup> وانقطاعي إليكم، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك... فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع، فقال كعب:

فَمَنْ لِلْقَوَافِي شَأْنُهَا مِنْ يَحْوُكُهَا

إذا ما ثوى<sup>(٣)</sup> كعبٌ وفؤز<sup>(٤)</sup> جَرُولُ<sup>(٥)</sup>

(١) أركبه خلفه على الراحلة

(٢) كان الخطيئة راوية زهير وآل زهير.

(٣) مات. (٤) هلك، مات. (٥) جَرُول: لقب الخطيئة.

يَقُولُ فَلَا تَعْبَأْ<sup>(١)</sup> بِشَيْءٍ تَقُولُهُ  
 وَمِنْ قَائِلِيهَا مَنْ يُسِيءُ وَيَعْجَلُ  
 كَفَيْتَكَ لَا تَلْقَى مِنَ النَّاسِ وَاحِداً  
 تَنْحَلُ<sup>(٢)</sup> مِنْهَا مِثْلَ مَا يَتَنَحَلُ  
 يُثَقِّفُهَا<sup>(٣)</sup> حَتَّى تَلِينَ مُتَوْنَهَا  
 فَيَقْصِرُ عَنْهَا كُلَّ مَا يَتَمَثَّلُ  
 وَمَا يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ مَوْهَبَتِهِ مِنْذُ صَغُرِهِ، مَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ  
 الْأَغَانِي قَالَ: قَالَ زَهِيرُ بَيْتاً وَنَصَفَاثِمُ أَكْدَى<sup>(٤)</sup>، فَمَرُّ بِهِ النَّابِغَةُ  
 فَقَالَ لَهُ: أَبَا أُمَامَةَ<sup>(٥)</sup> أَجِزْ. فَقَالَ: وَمَا قُلْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ  
 تَزِيدُ الْأَرْضَ إِمَّا مُتَّ خَفَاً  
 وَتَحْيَا إِنْ حَيَّيْتُ بِهَا ثَقِيلاً  
 نَزَلْتَ بِمُسْتَقَرِّ الْعَرْضِ مِنْهَا

.....  
 أَجِزْ. قَالَ، فَأَكْدَى وَاللَّهِ النَّابِغَةُ. وَأَقْبَلَ كَعْبُ بْنُ زَهِيرٍ -  
 وَإِنَّهُ لَغَلَامٌ - فَقَالَ أَبُوهُ: أَجِزْ يَا بَنِي. فَقَالَ: وَمَا أَجِيزُ؟

(١) تهتم.

(٢) اختار.

(٣) يهذبها.

(٤) عجز عن إتمامها.

(٥) كنية النابغة.

فأنشده، فأجاز النصف بيت فقال: «وتمنع جانيها أن يزولا»  
فضمه زهير إليه وقال: أشهد أنك ابني.

وبعد ما أذن له أبوه بقول الشعر، عاد إلى أهله وهو صغير  
يومئذٍ وهو يقول:

أبيتُ فلا أهجو الصديقَ ومن يبع  
يعرض أبيه في المعاشِرِ ينْفُ  
وكانت هذه أول قصيدة قالها.

كعب في الإسلام: لم يحدثنا الرواة كثيراً عن حياة كعب،  
فنحن لا نكاد نعلم عنها ما يستحق الذكر إلا خبر إسلامه،  
واعذاره إلى الرسول ﷺ بقصيدته الشهيرة والتي مطلعها:  
«بانت سعاد». وذلك أن بُجيراً أخا كعب وفد إلى النبي ﷺ  
في أواخر السنة السابعة للهجرة فأسلم، ووصل خبر إسلامه  
إلى أخيه كعب، فاستاء كعب من عمل أخيه، وقال فيه أبياتاً  
يؤنبه على فعلته هذه ويحثه على الارتداد عن الإسلام:

ألا أبلغا عني بُجيراً رسالةً  
فهل لك في ما قلت، ويحك، هل لك<sup>(١)</sup>

---

(١) فهل لك في ما قلت: أي هل ما قلته وتلفظت به كان بمحض إرادتك؟

سَقَاكَ بِهَا الْمَأْمُونُ كَأْسًا رَؤِيَةً  
فَأَنهَلَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعُغْلِكَا<sup>(١)</sup>  
فَفَارَقْتَ أَسْبَابَ الْهُدَى وَاتَّبَعْتَهُ  
عَلَى أَيِّ شَيْءٍ وَنَبَّ غَيْرَكَ، دَلَّكَا<sup>(٢)</sup>  
عَلَى مَذْهَبٍ لَمْ تُلَفِ أَمَّا وَلَا أَبَا  
عَلَيْهِ، وَلَمْ تَعْرِفْ عَلَيْهِ أَخَا لَكَا<sup>(٣)</sup>  
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَلَسْتُ بِأَسْفٍ  
وَلَا قَائِلٍ إِلَّا مَا عَشَرْتُ: لَمَّا لَكَا<sup>(٤)</sup>

ويرى الدكتور طه حسين مستخلصاً من هذه الأبيات، أن  
بجيراً وأخاه كانا قد ائتمرا بالنبي، وأن بجيراً كان قد سبق إلى  
محضر النبي، ليؤذيه ويسؤه، حتى إذا انتهى إليه آمن واهتدى  
كغيره من الذين سعوا إلى النبي يريدون به السوء، فلم يجدوا  
عنده إلا هدىً ورحمةً ونوراً. واستبطأ كعب أخاه، وعرف من  
أمره ما عرف<sup>(٥)</sup>، أو أنه شك في أمر إسلامه، فقال هذا

(١) سَقَاكَ بِهَا: أي بالشهادة. المأمون: أحد أسماء النبي. روية: تامة مفعة.

أنهَلَكَ: من النهل وهو أول الشرب. عُغْلِكَ: سَقَاكَ تَبَاعاً، أي سَقَاكَ  
فَأَرَاكَ. وجاء في بعض الروايات سَقَاكَ بِهَا الْمَأْمُونُ.

(٢) أَسْبَابَ: طرق. وب: دعاء عليه أي هلكك هلاك غيرك من تابعيه.

(٣) لَمْ تُلَفِ: لَمْ تَجِدْ.

(٤) لَمْ تَفْعَلْ: لَمْ تَرُدْ. لَمَّا لَكَ: وهو دعاء للعائر بالسلامة: أي إنْ أَنْتَ لَمْ تَرْجِعْ  
عَمَّا فَعَلْتَهُ فَلَا أَسْفَ عَلَيْكَ، وَلَا قَائِلٌ لَكَ قَائِمَةٌ.

(٥) أي علم خبر إسلامه.

الشعر، والدليل على ذلك هو البيت الأول الذي يروى على نحو يؤيد هذا المذهب والذي يقول:

فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتُ بِالْخَيْفِ هَلْ لَكَ.

فالذي يُفهم من هذا القول أنه كان قد قال شيئاً بهذا المكان الذي يدعى «بالخيف» وها هو كعب يذكره به، ويحرضه عليه، ويستبطنه في إنفاذ ما قال، كما أن البيت الأخير أيضاً صريح في هذا:

فإن أنت لم تفعل فلستُ بأسفٍ  
ولا قائلٍ إما عثرتُ لعمّ لكَا

وعلى هذا النحو يفهم إيعاد النبي لكعب وإهدار دمه، فقد كان كعب والحالة هذه يلهج بالنبي ويحرض عليه، ويدس إلى محضره من يناله بالمكروه، ثم هو فوق هذا وذاك يقول الشعر كما كان يقوله غيره من شعراء العرب الذين كانت تأجرهم قريش لدم النبي والإغراء به.

حتى إذا انتصر النبي في مكة وحنين، وأذعن العرب كلهم لسلطانته الجديد، وقُتل من قُتل بعد الفتح من خصوم الإسلام واعداء النبي، وفرار من فر، كل ذلك قد ملأ كعباً فزعاً ورعباً، وقد حاول كعب الفرار والاستخفاء، ولكن الأرض ضاقت به، والناس تحاذلوا عنه، حتى أن قبيلته أبت حمايته،

ونظر فإذا هو مأخوذ فهالك إذا لم يحتط لنفسه، وجاءته في  
 أثناء هذا كله رسالة أخيه يحثه على الإسراع في القدوم إلى  
 النبي مسلماً معتذراً، وبأن النبي رؤوف رحيم يأخذ العفو،  
 ويأمر بالعرف، ويعرض عن الجاهلين، ولا يعاقب تائباً بما  
 قدم قبل أن يتوب، وأخيراً استقرت عزيمة كعب على أن  
 يستجير بعفو النبي من غضب النبي، وانطلق حتى بلغ المدينة  
 سنة ٩ هـ ٦٣٠ م، فأوى إلى رجل من جهينة، فيما يقول  
 بعض الرواة، كما يقول بعضهم الآخر أنه أوى إلى أبي بكر  
 رضي الله عنه، فلما صُليَتُ الصبح، أقبل أبو بكر ومعه  
 كعب، وقد تلثم حتى استخفى وجهه، فلما انتهيا إلى النبي،  
 قال أبو بكر: هذا رجل يريد أن يبايعك على الإسلام، فبسط  
 النبي يده فبايعه كعب وأسلم، ثم ما لبث أن حسر اللثام عن  
 وجهه، وقال: هذا مكان العائد<sup>(١)</sup> بك يا رسول الله، أنا  
 كعب بن زهير. وهم الانصار به، فوثب رجل منهم وهو  
 يقول: دعني يا نبي الله أضرب عنقه، ولكنه ﷺ ردهم عنه  
 قائلاً: وكيف وقد أتانني مسلماً؟! أما المهاجرون فقد كفوا  
 عنه واحبوا إسلامه ولم يقولوا شيئاً. وهكذا بايع كعب النبي،  
 واتخذ له جاراً، ويقال أن النبي استنشد أبا بكر هذه الأبيات  
 التي مرت آنفاً، فأنشده إياها، فلما بلغ قوله:

(١) العائد: المستجير.



فَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُورُ مِنْهَا وَعَلَّكَ.

قال كعب: لم أقل المأمور يا رسول الله، وإنما قلت المأمون. فقال النبي مأمون والله، ورضي عن كعب، الذي قام فأنشده قصيدته الرائعة:

بَانتَ<sup>(١)</sup> سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ<sup>(٢)</sup>  
مُتِّمٌ<sup>(٣)</sup> إِثْرَهَا لَمْ يُقَدْ<sup>(٤)</sup> مَكْبُولُ<sup>(٥)</sup>

ويقال إنه ظلّ يشد حتى إذا انتهى إلى مدح قريش، أوما النبي إلى الناس أن اسمعوا، فلما بلغ من هذا المدح أروع وأجمله، أوما النبي إلى المهاجرين أن اسمعوا، ولكن كعباً عرض بالانصار فيما يقول الرواة، فغضب المهاجرون وقالوا: ما مدحنا الذي هجا الانصار، ويقال أن النبي نفسه غضب أيضاً، وذلك بقوله:

---

(١) بانت: بعدت، وفارقت.

(٢) متبول: أي تبله الحب، اسقمه وأضناه.

(٣) متيم: مذل بالحب.

(٤) لم يقْد: لم يجد من يفديه، فهو لم يزل مأسور.

(٥) مكبول: أسير مفيد.

يقول: إن الحب ذلل قلبه واسقمه ورماه بالأسر ولم يجد من يفديه.

كانت مواعيدُ عُرقوبٍ لها مثلاً  
وما مواعيدُها إلاّ الأباطيل<sup>(١)</sup>

وعرقوب هذا رجل من الأنصار من يثرب يُضرب به المثل في  
إخلافه بالوعد، يُقال انه كان صاحب نخل وأنه وعد صديقاً له  
أن يعطيه تمر نخلة من نخلة. فلما حملت وصارت بلحاً أراد  
الرجل أن يصمره، فقال له عرقوب دعه حتى يشقح أي يحمل  
ويصفر، فلما شقحت أراد الرجل أن يصرمها، فقال له عرقوب:  
دعها حتى تصير رطباً. فلما صارت رطباً قال: دعه حتى يصير  
تمراً، فلما صار تمراً انطلق عليه عرقوب فجذّه ليلاً فجاء الرجل  
بعد أيام فلم يرَ إلاّ عوداً قائماً، فذهب موعد عرقوب مثلاً.

فاضطر كعب إلى أن يثني على الأنصار في هذه الأبيات  
الجميلة المشهورة:

مَنْ سَرَّةُ كَرَمِ الْحَيَاةِ فَلَا يَزُلْ  
فِي مَقْنَبٍ مِنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ<sup>(٢)</sup>  
الْمُكْرِهِينَ السَّمْهَرِيَّ بِأَنْزَعِ  
كَسَافِلِ الْهِنْدِيِّ غَيْرِ قِصَارِ<sup>(٣)</sup>

(١) الأباطيل: الأكاذيب.

(٢) مقنب: جماعة من الفرسان والخيل دون المائة تجتمع للغارة (ج) مقانب.

(٣) السمهري: السيف. الهندي: السيف.

والباذلينَ نَفُوسَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ  
لَلْمَوْتِ يَوْمَ تَعَانِقِ وَكَرَارِ<sup>(١)</sup>  
يَتَطَهَّرُونَ بِرُونِهِ نُسْكَاً لَهُمْ  
بِدِمَاءٍ مَنْ عَلِقُوا مِنْ الْكُفَارِ<sup>(٢)</sup>

وقد أعجبت قصيدة كعب الرسول ﷺ فلم يكتفِ بالعفو  
عن كعب والاستماع له، والإقبال عليه، بل أراد أن يجيزه  
ويصله، فكساه بردة كانت له.. وقد بذل معاوية بن أبي  
سفيان لكعب عشرة آلاف درهم فلم يبيعها له، فلما مات  
كعب اشتراها معاوية من ورثته بعشرين ألف درهم، وقيل  
بثلاثين، وتوارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون، ويقال إنها  
وصلت إلى سلاطين آل عثمان، وهي البردة التي كان الخلفاء  
يلبسونها في العيدين.

فقصه اسلام كعب من أولها جميلة رائعة حلوة محببة إلى  
النفوس حقاً، وسواء أصحت كلها أم لم تصح إلا في  
جماليتها، فإنها تهيء لقصيدة كعب جواً شعرياً ملائماً كل  
الملاءمة لجمالها وروعيتها، وهي ثلاثم بنوع خاص مكان  
الممدوح الذي هو الرسول ﷺ، من البأس أول الأمر،

(١) الباذلين: المقدمين.

(٢) يقدم له الهدية والعطية.

فكعب كان يلهج بالنبى ﷺ ويحرض عليه ويأتمر به ليسوءه، وقد أهدر<sup>(١)</sup> النبي دمه حين أتم له النصر، وحين دانت له العرب، فلما بلغه الوعيد استطير، ولفظته الأرض، وجفاه الناس، ونَبَا عنه الأصدقاء، وخذله النصير، فلجأ من النبي إلى النبي، فوجد عنده حِلماً وعفواً كريماً، ثم مدحه فوجد منه إقبالاً عليه واستماعاً له، ثم وجد منه بعد هذا كله كرمًا وبذلًا وجوداً، وهذه لعمرى هي مكارم أخلاق الانبياء، وحُسن السمائل والخصال ولنعد إلى القصيدة نفسها لنرى أنها تتألف من أجزاء ثلاثة، فأما أولها: فهو هذا الغزل الذي قصد إليه كعب في أول القصيدة كما تعود الشعراء أن يفعلوا. وأما الثاني، فهو هذا الوصف الذي انتقل إليه كعب بعد الغزل كما تعود الشعراء أن يفعلوا أيضاً. وأما الثالث: فهو المدح والاعتذار اللذين أنشئت القصيدة أصلاً من أجلها، وانتهت القصيدة إليهما، ونسمع هذا الغزل فنحبه ونظمئن إليه، وسنعجب به إعجاباً شديداً، وسنرى فيه أثر أبيه زهير نفسه واضحاً جلياً، ولكن كعباً قد يطنب<sup>(٢)</sup> حيث يوجز أبوه، ولكن في اطنابه جمال وروعة، لأنه فَصَّلَ كعب حيث لم يُفصِّل أبوه.

(١) أهدر دمه: أباح دمه، أمر بقتله.

(٢) يطنب، إطناباً، والاطناب هو كثرة الكلام مع فائدة.

فلما فرغ كعب من مدح النبي ﷺ والمهاجرين، شق<sup>(١)</sup>  
 على الأنصار حيث لم يذكرهم مع إخوانهم - وكان رجل منهم  
 قال لرسول الله ﷺ: دعني أضرب عنقه كما أسلفنا - فقالوا:  
 «ألا ذكرتنا مع إخواننا من قريش!» فقال يذكرهم. وخاصة  
 بعد ما احتج المهاجرون وقالوا: ما مدحنا الذي هجا  
 الأنصار.

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الْحَيَاةِ فَلَا يَزَلْ  
 فِي مُقَنَّبٍ مِنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ<sup>(٢)</sup>  
 تَزِنُ الْجِبَالَ رَزَانَةٌ أَحْلَامُهُمْ  
 وَأَكْفُهُمْ خَلْفٌ مِنَ الْأَمْطَارِ<sup>(٣)</sup>  
 الْمَكْرَهِيْنَ السُّمَهْرِيَّ بِأَذْرُعِ  
 كَصَوَاقِلِ الْهِنْدِيِّ غَيْرِ قِصَارِ<sup>(٤)</sup>  
 وَالنَّاطِرِينَ بِأَعْيُنٍ مُخْمَرَةٍ  
 كَالْجَمْرِ غَيْرِ كَلِيلَةِ الْإِبْصَارِ<sup>(٥)</sup>

(١) شق: صعب عليهم.

(٢) المقنَّب: الجماعة من الفرسان والخيل تجتمع للغارة.

(٣) أحلامهم: عقولهم. يقول أن عقولهم كبيرة راجحة وأكفهم سخية كريمة.

(٤) السمهري: القنا، الرمح. صواقل الهندي: السيوف القاطعة المنسوبة إلى الهند، لقد شبه أيديهم بالرماح لقوتها، وبسيوف الهند، لمضائها وشدة قطعها.

(٥) الأعين المخمرة: كناية عن الغضب والغيط والتشوق للقاء الأعداء.  
 الكليلة: الضعيفة.

والذائدينَ الناسَ عن أديانهم  
 بالمَشْرِفِي وبالْقَنَا الخطارِ<sup>(١)</sup>  
 والباذلين نفوسهم لنبيهم  
 يومَ الهَيَاجِ وَقُبَّةِ الجَبَّارِ<sup>(٢)</sup>  
 دَرَبُوا كما دَرَبْتُ أَسُودَ خَفِيَّةِ  
 غُلْبِ الرُّقَابِ مِنَ الْأَسُودِ ضَوَارِي<sup>(٣)</sup>  
 وَهُمْ إِذَا خَوَتْ النُّجُومُ فَإِنَّهُمْ  
 لِلطَّائِفِينَ السَّائِلِينَ مَقَارِي<sup>(٤)</sup>  
 وَهُمْ إِذَا انْقَلَبُوا كَأَنَّ ثِيَابَهُمْ  
 مِنْهَا تَضُرُّوعُ فَأَرَّةَ الْعِطَارِ<sup>(٥)</sup>

---

(١) المشرقي: السيف، نسبة إلى قرى من أرض اليمن، وقيل من أرض العرب تدنو من الريف. لسان العرب (٩: ١٧٤).

(٢) الهياج: الحرب. وقبة الجبار: أي بيت الله الحرام.

(٣) دربوا: اعتادوا، من الدربة وهي العادة. خفيّة: أجمة «غابة» في سواد الكوفة بينها وبين الرحبة بضعة عشر ميلاً، ينسب إليها الأسود. غلب الرقاب: غلاظها. ضواري: مفترسة.

(٤) خوت النجوم: أي إذا لم يكن لها مطر، المقاري: الذين يقرون الضيوف، أي يقومون بضيافتهم.

(٥) انقلبوا: أي رجعوا. تضرع: تفوح وتنتشر. فأرة العطار: نافذة المسك أي وعاءه.

والمُطْعِمُونَ الضَّيْفَ حِينَ يَنْوِبُهُمْ .  
 (١) مِنْ لَحْمٍ كُومٍ كَالْهَضَابِ عِشَارٍ (١)  
 وَالْمَنْعَمُونَ الْمَفْضِلُونَ إِذَا شَتَّوْا  
 وَالضَّارِبُونَ عِلاوَةً الْجَبَّارِ (٢)  
 رُمِيتْ نَطَاةٌ مِنَ الرُّسُولِ بِفَيْلَقٍ  
 شَهْبَاءَ ذَاتِ مَنَاقِبٍ وَفَقَارٍ (٣)  
 بِالْمُرْهَفَاتِ كَأَنَّ لَمْعَ ظُبَاتِهَا  
 لَمْعُ السَّوَارِي فِي الصَّيْرِ السَّارِي (٤)

(١) ينوبهم: يأتيهم، يتناوبهم. الكوم، الواحدة منها كوماه: وهي الناقة الضخمة السنام والسنام هو كومة الشحم الموجودة في أعلى ظهر الناقة أو البعير. الهضاب: مفردا هضبة، أرض ترتفع قليلاً عما حولها. العشار، الواحدة منها عشراء: وهي التي أتت عليها عشرة أشهر من حملها، أي حامل في الشهر العاشر.

(٢) شتوا: دخلوا في فصل الشتاء، قال أبو منصور: والعرب تسمي القحط شتاءً لأن المجاعات أكثر ما نصيبهم في الشتاء البارد، لأنهم يلتزمون البيوت ولا يخرجون للانتجاع. العلاوة: العنق. الجبار: الشديد القوي.

(٣) نطاة: بالفتح، وآخره تاء مربوطة: هو اسم لأرض خيبر، وقال الزمخشري: نطاة حصن بخيبر، وقيل: عين ماء بقرية من قرى خيبر. الفيلق: الجيش العظيم.

(٤) المرهفات: السيوف. طباة، مفردا طبة وهو حد السيف ومضربه. السواري: السحب التي تأتي ليلاً لأن برقها يكون أشد لمعاناً. الصير: السحاب الأبيض.

لَا يَشْتَكُونَ الْمَوْتَ إِنْ نَزَلَتْ بِهِمْ  
 شَهْبَاءُ ذَاتِ مَعَاقِمٍ وَأَوَارٍ <sup>(١)</sup>  
 وَإِذَا نَزَلَتْ لِيَمْنَعُوكَ إِلَيْهِمْ  
 أَصْبَحْتَ عِنْدَ مَعَاوِلِ الْأَغْفَارِ <sup>(٢)</sup>  
 وَرَأَوْا السِّيَادَةَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ  
 إِنْ الْكِرَامُ هُمْ بَنُو الْأَخْيَارِ <sup>(٣)</sup>  
 لِلصُّلْبِ مِنْ غَسَّانٍ فَوْقَ جَرَاثِمٍ  
 تَنْبُؤًا خَوَالِدُهَا عَنِ الْمِنْقَارِ <sup>(٤)</sup>  
 لَوْ يَعْلَمُ الْأَحْيَاءُ عِلْمِي فِيهِمْ  
 حَقًّا لَصَدَّقَنِي الَّذِينَ أَقَارِي

- 
- (١) الشهباء: الكتيبة من الجيش التي يلعب سلاحها. المعاقم: الهلاك.  
 الأوار: شدة الحرب وضرواتها، ولعله أراد الغبار الذي يثور من وقع  
 حوافر الخيل.  
 (٢) المعاول: الحصون، وهي ها هنا أعالي الجبال. الاغفار: الواحد غفر:  
 وهو ولد البقرة وقيل ولد الأروثة، ولا يكون إلا في الجبال وقليلًا ما  
 يكون في السهل.  
 (٣) كابرًا عن كابر: أي كبيراً شريفاً عن كبير شريف.  
 (٤) الصلب: الجذ الأعظم. غسان: وهو ماء بسد مأرب باليمن وإليه تنسب  
 القبائل المشهورة. الجراثم: أصول الشجر يجتمع إليها التراب فتكون  
 أرفع مما حوفا، وقد ضرب مثلاً للعز والشرف والمنعة. الخوالد:  
 الجبال. المنقار: آلة حادة تقطع بها الحجارة، أراد أن من رامهم وأراد  
 بهم الشر امتنعوا عليه كما تمتنع رواسخ الجبال على تلك الآلات.



- صَدَمُوا عَلِيًّا يَوْمَ بَذَرَ صَدَمَةً  
 دَانَتْ عَلِيٌّ بَعْدَهَا لِنَزَارِ<sup>(١)</sup>  
 يَتَطَهَّرُونَ كَأَنَّهُ نُسْكٌ لَهُمْ  
 بِدِمَاءٍ مِنْ عَلَقُوا مِنَ الْكُفَّارِ<sup>(٢)</sup>  
 وَإِلَيْهِمْ اسْتَفْبَلْتُ كُلَّ وَدِيقَةٍ  
 شَهْبَاءٍ يَشْفَعُ حَرُّهَا كَالنَّارِ<sup>(٣)</sup>  
 وَمَرِيضَةٍ مَرَضَ النُّعَاسِ ذَعْرَتُهَا  
 بَادَرْتُ عِلَّةَ نَوْمِهَا بِغِرَارِ<sup>(٤)</sup>  
 وَعِلِمْتُ أَنِّي مُضْبِحٌ بِمَضْبِعَةٍ  
 غَبْرَاءُ تَغْرِفُ جِبُّهَا مَذْكَارِ<sup>(٥)</sup>

(١) وقيل: علي هو علي بن واثل. وقيل علي أخو عبد مناة بن كنانة بن خزيمة من أمه، وفي ذلك أقوال كثيرة والله أعلم. بدر: ماء مشهورة بين مكة والمدينة، وبهذا الماء كانت الوقعة المشهورة التي أظهر الله بها الإسلام وفرَّق بين الحق والباطل في شهر رمضان سنة اثنين للهجرة. دانت: خضعت وذلت.

(٢) النسك: ما يذبح في الحرم، علقوا: وقعوا في الشباك، وعلق الشيء علقاً لزمه، وعلقت نفسه الشيء: لهجت به.

(٣) الوديقة: شدة الحر. يسفع: يلفح الوجه.

(٤) يقول: لم أترك ناقتي تنام إنما بادرتها بالرحيل. والغرار: قلة النوم.

(٥) المضبعة: القفر الخالي. غبراء: إشارة إلى جديها وقلة خيرها. تغرف: تصوت. المذكار: ذات هول وفزع، وقيل: التي لا يسلكها إلا الذكور من الرجال.

- وَكَسَوْتُ كَاهِلَ حُرَّةٍ مِنْهُوَكَةٍ  
 بِالْفَجْرِ حَارِيًّا عَدِيمٌ شَوَارٍ <sup>(١)</sup>  
 سَلِسْتُ عَرَاقِيهِ فَكُلُّ قَبِيلَةٍ  
 مِنْ جَنْوِهِ قَلِقَتْ إِلَى مِسْمَارٍ <sup>(٢)</sup>  
 وَسَدَّتْ مُهْمَلِجَةً عُلاَّةً مُدْمَجٍ  
 مِنْ فَالِقٍ حَصَدٍ مِنَ الْإِمْرَارِ <sup>(٣)</sup>  
 حَتَّى إِذَا اكْتَسَبَتِ الْأَبَارِقُ نُقْبَةً  
 مِثْلَ الْمَلَأِ مِنَ السَّرَابِ الْجَارِي <sup>(٤)</sup>  
 وَرَضِيَتْ عَنْهَا بِالرُّضَا لَمَّا أَتَتْ  
 مِنْ دُونِ عُسْرَةٍ ضِغْنِهَا يَيْسَارٍ <sup>(٥)</sup>

- 
- (١) المنهوكه: التي أجهدتها السير. الحاري: المنسوب إلى الحيرة. عديم: شوار: أي تخرق ما عليه من ثياب وغيره لطول السفر، وقال بعضهم: «عديم شواره أي رحل لا نظير له.
- (٢) سلس: قويت واستحكمت. العراقي: العيدان في مؤخرة الرحل. المهنو: خشب الرحل.
- (٣) المهملجة: ضرب من العدو. العلاة: بقية كل شيء. المدمج: السوط. من فالق: يعني سوطاً من فيلق العنق. الحصد: الشديد القتل وكذلك الإمرار فهو إحكام القتل وشده.
- (٤) الأبارق، الواحد أبرق: مرتفع من الأرض غليظ كثير الحجارة والطين. النقبة: ستار من السراب. الملاء: ثوب يلبس على الفخذين. الجاري: المترقق.
- (٥) والضغن: الاشتياق إلى الوطن. اليسار: اليسر واللين. أراد أنها كانت

تَنْجُو بِهَا عَنقُ كِنَازٍ لَحْمُهَا  
 حَفَزَتْ فَقَاراً لَاحِقاً بِفَقَارٍ<sup>(١)</sup>  
 فِي كَاهِلٍ وَشَجَتْ إِلَى أَطْبَاقِهِ  
 دَأْيَاتُ مُنْتَفَخٍ مِنَ الْأَزْوَارِ<sup>(٢)</sup>  
 وَتُدِيرُ لِلخَرْقِ الْبَعِيدِ نِيَّاطَهُ  
 بَعْدَ الْكَلَالِ وَبَعْدَ نَوْمِ السَّارِي<sup>(٣)</sup>  
 عَيْناً كَمَرَاةِ الصَّنَاعِ تُدِيرُهَا  
 بِأَنَامِلِ الْكَفَّيْنِ كُلِّ مُدَارٍ<sup>(٤)</sup>  
 بِجَمَالٍ مَحْجَرُهَا وَتَعْلَمُ مَا الَّذِي  
 تَبْدِي نَظْرَهُ زَوْجَهَا وَتَوَارِي<sup>(٥)</sup>

- 
- = تنبأطاً في سيرها لأنها تملك طريقاً غير طريق وطنها ثم تياسرت بعد ذلك.
- (١) تنجو: تسرع في سيرها. كناز لحمها: أي مكتنزة اللحم. حفزت: دفعت. الفقار: خرز الصلب والعنق والذنب.
- (٢) وشجت: دخنت. الأطباق والدأيات واحد: وهي فقار العنق، وقيل: ضلوع الصدر. الأزوار، الواحد زور: الصدر.
- (٣) الخرق: الفرجة تكون في الثوب وغيره، وقال المؤرج: كل بلد واسع تتخرق به الرياح فهو خرق.
- الكلال: الإعياء. الساري: الذي يسير ليلاً. أراد أن سير الليل وشدة الأعياء لا تنال منها.
- (٤) الصنّاع: المرأة الحاذقة بالعمل والاعتناء بنفسها بعكس المرأة الخرقاء التي لا تبالي بزينة نفسها.
- (٥) المحجر: ما يحيط بالعين من خارجها. تبدي: تظهر. وتواري: تخفي.

هذه القصيدة على البحر الكامل<sup>(١)</sup>، وقد استهلها الشاعر بالمدح، ولم يستهلها بالغزل على عادة الشعراء في الجاهلية وصدر الإسلام، وهذا يعني أن هناك تحولاً جديداً في شعر كعب، إلا أنه تحول لم يكن جذرياً بكل معنى الكلمة، ولا هو يشكل انقلاباً على الانماط الجاهلية في المدح، وهذا التحول يمكن لنا أن نلمحه في المعاني الجديدة التي امتدى إليها بعد اسلامه فقد وسع الاسلام مدارك عقله وآفاق خياله، وأمدّه بأشياء كثيرة كان يفتقدها ويجهلها، ولم يكن بوسعها أن يدركها لولا ذلك الاطلاع على القرآن وعلى تعاليم الاسلام، ولذلك نجد كعب في هذه القصيدة أعمق فكراً وأشمل نظراً، كما أنها تحمل منهجاً مغايراً للسّنن التقليدي إذ نراه فيها يخلع ذلك النهج وكأنه رأى فيه تكراراً مملاً أو إراثاً قديماً لا يتناسب مع طبيعة العقيدة الجديدة التي آمن بها طائعاً مختاراً بل وتائباً من قديمه الذي ألحق به الضرر، وكاد يقضي عليه لولا رحمة الله التي أكتشفته، لذلك نراه يخرج فيها من طبيعته الأولى، ويخلع رداء التقليد الممل، ويخاطب الأنصار في شعر يحمل لأول مرة معارفه الجديدة ومكتسباته

(١) وزنه:

متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن  
متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن

الايمانية المستحدثة ويكاد يتحلل فيه إلى حد ما، من قيوده  
الماضية، ويخلع عنه رداء التقليد لولا ذلك التخلُّص اللبق  
الذي شدّه إلى قديمه وحمله على وصف الناقة، ولولا بعض  
ذلك المدح الذي نلمح فيه أنفاس شعر الخنساء في رثائها  
لأخوها صخر<sup>(١)</sup>

---

(١) انظر بعض أبياتها «والمطعون الضيف، والمنعمون المفضلون إذا شتوا -  
وورثوا السيادة.

## أشعاره



قصيدته «بانت سعاد» وهي على البحر البسيط<sup>(١)</sup>.

بَانتُ سَعَادُ، فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولُ  
مَتِيمٌ لِأَثَرِهَا، لَمْ يُجْزَ<sup>(٢)</sup> مَكْبُولُ<sup>(٣)</sup>  
وَمَا سَعَادُ، غَدَاةَ الْبَيْنِ، إِذْ رَحَلُوا<sup>(٤)</sup>  
إِلَّا أَغْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ، مَكْحُولُ<sup>(٥)</sup>  
هَيْفَاءُ مُقْبِلَةً، عَجْزَاءُ مُدْبِرَةً،  
لَا يُشْتَكِي قَصْرُ مِنْهَا، وَلَا طَوْلُ<sup>(٦)</sup>

---

(١) مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن.

(٢) كذا في الأصل، وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة، أما في جمهرة اشعار العرب لأبي زيد القرشي فقد ورد «لم يُغْزَ».

(٣) بانت: فارقت. متبول: متيم، هائم. متيم: مذلل بالحب. لم يجز: لم يجد من يفديه. مكبول: مقيد أسير.

(٤) ويروي في الشعر والشعراء: «إذ عرضت».

(٥) البين: البعاد والفراق. أغن: صفة للغزال الذي في صوته غنة وهو صوت محبوب يخرج من أقصى الأنف. غضيض الطرف: فاطر النظر، منكسر الاجفان. وهذه صفات حسنة من صفات العيون.

(٦) لم يرد هذا البيت في الديوان، وقد أثبتته القرشي في الجمهرة. هيفاء: ذات قامة مدبلة. عجزاء: ذات عجيذة ضخمة. وهذا ما كانت تحبه الأعراب في النساء. راجع فصل المرأة من هذا الكتاب.



تَجَلَّوْا عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ  
كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَغْلُولٌ<sup>(١)</sup>  
شَجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةٍ  
صَافٍ بِأَبْطَحٍ، أَضْحَى، وَهُوَ مَشْمُولٌ<sup>(٢)</sup>  
تَجَلَّوْا<sup>(٣)</sup> الرِّيحَ الْقَذَى عَنْهُ، وَافْرَطَهُ  
مِنْ صَوْبٍ سَارِيَةٍ بَيَضُ يَعَالِيلُ<sup>(٤)</sup>  
يَا وَيَحَا خُلَّةٌ<sup>(٥)</sup> لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ  
مَا وَعَدَتْ أَوْ لَوْ أَنَّ النَّصْحَ مَقْبُولٌ<sup>(٦)</sup>

(١) تجلّو: تكشف. العوارض: الضوايح من الأسنان. الظلم: ماء الأسنان وبريقها ولعائها. المنهل: المسقى مرة أولى. الراح: الخمر. المغلول: المسقى مرة بعد أخرى.

(٢) شجّت: مزجت. ذو الشّبم: البارد. الأبطح: النيل المتسع. المشمول: الذي أصابته ريح الشمال فبرّده.

(٣) وروايته في الجمهرة وتنفي.

(٤) الصوب: المطر. أفرطه: ملأه. السارية: السحابة التي تمطر ليلاً. البيض: السحاب البيض، وقد حلت الصفة مكان الموصوف. يعاليل، الواحد يعلول: السحابة الطويلة.

(٥) ويروى أيضاً: «ويل أمها خُلَّة». وفي جمهرة أشعار العرب: «أكرم بها خُلَّة».

(٦) الخُلَّة: الخليفة، الصديقة. يقول ما أكرمها صاحبة لو أنها تصدق وعدها أو أنها تقبل النصح في من يهواها.

لَكِنَّهَا خُلَّةٌ قَدْ سَيْطَ مِنْ دَمِهَا  
فَجَعُ، وولعُ، وإخلافُ، وَتَبْدِيلُ<sup>(١)</sup>  
فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا،  
كَمَا تَلَوْنُ فِي أَثَوَابِهَا الْغُولُ<sup>(٢)</sup>  
وَمَا تَمْسُكَ بِالْوَصْلِ الَّذِي زَعَمْتَ  
إِلَّا كَمَا تُمْسِكُ الْمَاءَ الْغَرَابِيلُ<sup>(٣)</sup>  
كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا  
وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْإِبَاطِيلُ<sup>(٤)</sup>  
أَرْجُو وَأُمِّلُ أَنْ يَغْجَلُنَ فِي أَبَدٍ  
وَمَا لَهُنَّ طَوَالَ الدَّهْرِ تَعْجِيلُ<sup>(٥)</sup>

(١) سيط: خلط. الفجع: الإصابة بما يكره. الولع: الكذب. وإخلاف، أخلف: جعل شيئاً بدل آخر ذهب منه أراد أنها قد خلط بدمها الفجع بالمصائب والكذب في الأخبار وإخلاف الوعد وتبديل خليل بآخر، وصار ذلك سجية لها وطبعاً يلزمها لا حيلة في زواله عنها.

(٢) كذا رواية صدر البيت في الجهمرة، أما روايته في الشعر والشعراء: ووما تدوم على العهد الذي زعمت. والغول: السعلاة، وقد زعم العرب أنها تغتاهم، وأنها تترأى لهم في الفلوات على صور مختلفة وأشكال متباينة فضلهم عن الطريق.

(٣) أراد أنها لا تفي بعهودها وموآثيقها.

(٤) عرقوب: رجل من يثرب يضرب به المثل في إخلافه بالوعد.

(٥) وقد ورد في الجهمرة: أرجو وأُمِّلُ أَنْ تَدُنُو مَوَدَّتِهَا وَمَا إِخَالَ لَدِينَا مِنْكَ تَوْبِيلُ وَالتَّوْبِيلُ: العطاء. يقول: مع اتصاف باخفاء وإخلاف الوعد، فإني لا =

فَلَا يُغَرِّنُكَ مَا مُنْتُ، وَمَا وَعَدْتُ  
 إِنَّ الْأَمَانِي وَالْأَخْلَامَ تَضْلِيلُ<sup>(١)</sup>  
 أَمَسْتُ سَعَادَ بَأَرْضٍ لَا يُبْلَغُهَا  
 إِلَّا الْعِتَاقُ، النِّجِيَّاتُ، الْمَرَاسِيلُ<sup>(٢)</sup>  
 وَلَنْ يُبْلَغُهَا إِلَّا عُذَافِرَةٌ  
 فِيهَا عَلَى الْآيِنِ إِرْقَالٌ وَتَبْغِيلُ<sup>(٣)</sup>  
 مِنْ كُلِّ نَضَاحَةِ الذَّفَرَى إِذَا عَرِقَتْ  
 عُرْضَتُهَا طَامِسُ الْأَعْلَامِ مَجْهُولُ<sup>(٤)</sup>  
 تَرْمِي الْغُيُوبَ بِغَيْنِي مُفَرِّدٍ لَهْقِي  
 إِذَا تَوَمَّدَتْ الْحُزَانُ وَالْمِيلُ<sup>(٥)</sup>

= أقطع الرجاء من مودتها، ثم التفت إليها مخاطبها: ولا أحسب أن لي منك عطاء أرجوه.

- (١) منت: جعلتك تمنى. تضليل: عدم الهداية.  
 (٢) لا يبلغها: لا يبلغ سعاد إليها. العتاق: النوق الكرام الأصول.  
 النجيات المراسيل: السريعات السهلة اليدين في السير.  
 (٣) العذافرة: الصلبة القوية. الآين: التعب والنصب. الإرقال: ضرب سريع من السير. التبغيل: ضرب من الحملجة، يقال حملجت الدابة: سارت سيرا حسنا في سرعة.  
 (٤) النضاحة: السائلة. الذفري: ما تحت اذن الناقة ما يلي الرقبة.  
 عرضتها: أي إهتمامها ومقدرتها. الطامس: المندرس، المختفي. الأعلام، الواحد علم: وهو الإشارة على الطريق.  
 (٥) المفرد: المنفرد، أراد به الثور الوحشي. لهق: شديد البياض. الحزان، الواحد حزن: ما غلظ من الأرض. الميل: ما تراكم ومال من الرمل.

ضَخْمٌ مُقَلَّدُهَا، فَعَمٌ مُقَيَّدُهَا  
 فِي خَلْقِهَا، عَنْ بَنَاتِ الْفَحْلِ، تَفْضِيلٌ<sup>(١)</sup>  
 غَلْبَاءٌ، وَجَنَاءٌ، عُلُكُومٌ، مُذَكَّرَةٌ  
 فِي ذَفِّهَا سَعَةً، قُدَامُهَا مِيلٌ  
 وَجِلْدُهَا مِنْ أَطْوَ مِنْهَا يُؤَيِّسُهُ  
 طَلْحٌ، بِضَاحِيَةِ الْمَتْنِ، مَهْزُولٌ<sup>(٢)</sup>  
 حَرَفٌ أَخُوهَا أَبُوهَا مِنْ مُهَجَّنَةٍ  
 وَعَمُّهَا خَالُهَا، قُودَاءٌ، شِمْلِيلٌ<sup>(٣)</sup>  
 يَمْشِي الْقِرَادُ عَلَيْهَا، ثُمَّ يُزْلِقُهَا  
 مِنْهَا لَبَانٌ، وَأَقْرَابٌ زَهَالِيلٌ<sup>(٤)</sup>

(١) المقلد: موضع الغلادة من العنف. المقيد: موضع القيد، الرسخ. بنات الفحل: النوق.

(٢) الغلباء: الغليظة. الوجناء: عظيمة الوجنتين. العلكوم: الضخمة. مذكرة: تشبه الذكر. الدف: الجنب. قدامها ميل: أي أنها طويلة العنق. الأطوم: قيل أنها سلحفاة بحرية، وقيل سمكة غليظة الجلد. يؤيسه: يؤثر فيه. الطلح: القراد. ضاحية المتن: ما برز للشمس من ظهرها. مهزول: ضعيف.

(٣) الحرف: الناقة الضامرة. المهجنة: الكريمة. قوداء: طويلة العنق. الشمليل: الخفيفة.

(٤) القراد: دوية تتعلق بالبعير وغيره تمتص دمه وهي كالقمل عند الإنسان. اللبنان: الصدر. الأقرب: الخواطر. الزهاليل، الواحدة زهلول: أي ملساء.

عيرانة قُذِفَتْ فِي اللَّحْمِ عَنْ عُرْضٍ  
 مِرْفَقُهَا عَنْ نَبَاتِ الزُّورِ مَفْتُولٌ<sup>(١)</sup>  
 كَأَنَّ مَا فَاتَ عَيْنَيْهَا وَمَذْبَحُهَا  
 مِنْ خَطْمِهَا وَمِنْ اللَّحْيَيْنِ بَرْطِيلٌ<sup>(٢)</sup>  
 تَمَرٌ مِثْلَ عَسِيبِ النَّخْلِ، ذَا خُصْلٍ  
 فِي غَارِزٍ لَمْ تَخُونُهُ الْإِحَالِيلُ<sup>(٣)</sup>  
 لَقَدْ أَقُومُ مَقَاماً لَوْ يَقُومُ بِهِ  
 أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفَيْلُ<sup>(٤)</sup>  
 لَظَلَّ يُرْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ  
 مِنَ الرُّسُولِ بِإِذْنِ اللَّهِ، تَنْوِيلٌ<sup>(٥)</sup>

- 
- (١) عيرانة: صلبة كالعبر، والعير هو الحمل. وقوله: عن عرض، أي رميت باللحم في أعراضها. ونبات الزور: العضلتان.
- (٢) فات: تقدم. الخطم: مقدم الأنف، البرطيل: الحديدة الطويلة أو الحجر الطويل.
- (٣) عسب النخل: الجريدة، شبه بها ذنب الناقة. الغارز: الضرع. تخونه: تنقصه الإحالييل، الواحد أحليل، وهو مخرج الحليب من الثدي.
- (٤) يقول: لقد حضرت مجلساً هائلاً، ورأيت أمراً عظيماً، وسمعت كلاماً عجيباً لو رآه وسمعه الفيل لظلَّ يرعد.
- (٥) يرعد: تأخذه الرعدة من شدة الخوف، وخص الفيل لأنه أراد التهويل والتعظيم، لأن الفيل كما هو معروف أعظم الحيوانات وأضخمها جثة. التنويل: العطاء، وأراد به هنا التأمين.

حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي لَا أَنْزَعُهُ  
 فِي كَفِّ ذِي نَقَمَاتٍ قَبِيلُهُ الْقَيْلُ<sup>(١)</sup>  
 لَذَاكَ أَهْيَبُ عِنْدِي إِذَا أَكَلَّمُهُ  
 وَقِيلَ: إِنَّكَ مَسْبُورٌ وَمَسْؤُولُ<sup>(٢)</sup>  
 مِنْ ضَيْغَمٍ مِنْ ضِرَاءِ الْأَسَدِ مَخْذَرُهُ  
 بَطْنِ عَثْرٍ، غِيلٌ دُونَهُ غِيلُ<sup>(٣)</sup>  
 يَغْدُو، فَيَلْحَمُ ضِرْغَامَيْنِ، عَيْشُهُمَا  
 لَحْمٌ مِنَ الْقَوْمِ مَغْفُورٌ، خِرَادِيلُ<sup>(٤)</sup>  
 إِذَا يُسَاوِرُ قِرْنَ لَا يَحِلُّ لَهُ  
 أَنْ يَثْرَكَ الْقِرْنُ إِلَّا وَهُوَ مَفْلُولُ<sup>(٥)</sup>

- 
- (١) وضعت يميني: إشارة إلى مصافحته النبي بالإسلام، والضمير في أنزاعه عائد للنبي. قبيله القيل: أي قوله صادق فاضل.  
 (٢) المسبور: الحسن الهيئة. منسوب: أي مسؤول عما تُنسب إليك.  
 (٣) الضيغم: الأسد، الضراء، الواحد ضار: أي مفترس. مخذره: عرينه. عثر: بفتح أوله وتشديد ثانيه، وآخره راء مهملة، قال أبو منصور: عثر موضع وهو مأسدة يعني أنه كثير الأسود. معجم البلدان (٤: ٨٥). غيل: أي هلاك ما بعده هلاك.  
 (٤) يغدو: ييكر. يلحم: يطعم لحماً. مغفور: مطروح على التراب. الخراديل، الواحد خردله: أي القطعة الصغيرة.  
 (٥) القرن: الحصم. مفلول: مكسور، منهزم.

مِنْهُ تَظَلُّ حَمِيرُ الْوَحْشِ ضَافِرَةٌ  
 وَلَا تُمَشِّي بِوَادِيهِ الْأَرَاجِيلُ <sup>(١)</sup>  
 وَلَا يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخُو ثِقَةٍ  
 مُطَرَّحُ الْبِرِّ، وَالذُّرْسَانِ، مَأْكُولُ <sup>(٢)</sup>  
 إِنَّ الرُّسُولَ لَسَيْفٌ يَسْتَضَاءُ بِهِ  
 مَهْنَدٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ مَسْلُولُ <sup>(٣)</sup>  
 فِي عُضْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ  
 بِيْطَن مَكَّةَ، لَمَّا أَسْلَمُوا: 'زُولُوا' <sup>(٤)</sup>  
 زَالُوا، فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ، وَلَا كَشْفٌ،  
 عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَلَا مِيلٌ مَعَاذِلُ <sup>(٥)</sup>

(١) الضافرة: الساكنة. الأراجيل، الواحد رجيل: الرجل بخلاف الراكب.

(٢) الذُّرْسَان، مثنى درس: وهو الثوب المتخرق البالي. ويروى أيضاً: ومطرح اللحم والدرسين مقتول.

(٣) يستضاء به: يهتدي به. المهند: السيف المنسوب إلى الهند، وهو أجود السيوف عند العرب.

(٤) العُضْبَة: الجماعة. قائلهم: أراد به عمر بن الخطاب رضي الله عنه. زولوا: أي هاجروا من مكة إلى المدينة، وإنما خص قريشاً بالذكر لأن أغلب المهاجرين كانوا منها.

(٥) الانكاس، الواحد منها نكس: وهو الضعيف الجبان. كشف، الواحد اكشف: وهو من لا ترس له بحميه، أو هو الشجاع الذي لا يتكشف في الحرب. ميل، الواحد أميل: وهو من لا سيف له، أو من لا يحسن =

شُمُ العرانيين، أبطال، كَبُوسُهُمْ  
 من نَسَجِ دَاوُدَ فِي الهَيْجَا، سَرَابِيلُ<sup>(١)</sup>  
 بِيضُ سَوَابِغُ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقُ  
 كَأَنَّهَا حَلَقُ الْقَفْعَاءِ، مَجْدُولُ<sup>(٢)</sup>  
 لَا يَفْرَحُونَ، إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ  
 قَوْمًا، وَلَيْسُوا مَجَازِيْعًا، إِذَا نِيلُوا<sup>(٣)</sup>  
 يَمْشُونَ مَشْيَ الْجَمَالِ الزَّهْرِ، يَقْصِمُهُمْ  
 ضَرْبُ، إِذَا عَرَّدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ<sup>(٤)</sup>

---

= الركوب. المعازيل: الواحد معزول: وهو الأعزل، من لا يملك سلاحاً.

- (١) شُم العرانيين، والعرنين: هو رأس الأنف، كناية عن الأنفة والإباء. من نسج داود: أي من صنعه، أي دروعهم داودية الصنع، علامة الجودة والمتانة والافتان، وهي من الدروع المشهورة. السرابيل: الدروع.  
 (٢) البيض السوابغ: الدروع. شُكَّتْ: أدخل بعض وسُفِّرَتْ. القفعاء: نوع من النبات ينسط على وجه الأرض له حلَق كالخواتم.  
 (٣) المجازيع، الواحد مجزاع: وهو الشديد الجزع والخوف. يقول: إنهم إذا حققوا النصر لا يفرحون به لكونه من عاداتهم، وإذا هزمهم عدوهم لا يجزعون من لقائه ثانية لثقتهم بالتغلب عليه.  
 (٤) ويروى «البهم» مكان «الزهر». الزهر: البيض. عَرَّدَ: جَبَّنَ. التَّنَابِيلُ، الواحد تنبال: وهو القصير. وكعب يُعرض في هذا البيت - على حد قول بعض الشراح - بالانصار لتحاملهم عليه يوم وفد على الرسول ﷺ.



لَا يَقَعُ الطَّغْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ،

ما إن لَهُمْ عن حياض الموت تهليل<sup>(١)</sup>

لقد استهل كعب قصيدته متغزلاً واصفاً ثغر حبيبته، شاكياً هجرها، وإخلافها مواعيدها، فترى الصور الحسية تتراكم في أوصافه ويتبع بعضها بعضاً، ولا سيما تشبيه حلاوة الثغر وبرودته بخمرة خلطت بماء بارد، ثم إلحاقه بوصف هذا الماء ليبالغ في تصوير برودته وصفائه... وأراد أن يصفها بالكذب والاختلاف والفجع والتبديل، فصور أن هذه الصفات متحركة فيها، حتى أنها قد أصبحت تجري بدمها لا تقدر على مقاومتها. كما يتطرق إلى الحكمة وضرب المثل، كقوله: «وَلَا تُمَسِّكْ بِالْعَهْدِ...»، إن الأماني والاحلام تضليل...، كانت مواعيد عُرقوب... كل ابن انثى وان طالت سلامته... الخ». ويتنقل بعد ذلك إلى وصف الناقة فيبدع ابداعاً يجاري فيه فحول الشعراء امثال طرفه وغيره، ويتلاعب بالمعاني تلاعباً ذكياً لم يسبقه إليه أحد. وفي هذا القسم أيضاً تكثر الصور المادية، كما تكثر الألفاظ الغريبة، فيصف ضخامة عنق ناقته وطوله، وعظم وجنتيها، ونعومة جلدها، ثم يشبه وجهها في صلابته بمعول من حديد أو حجر

(١) حياض الموت: موارد الهلاك. التهليل: الجبن والفرار. يقول: لا يقع طعن الأعداء في ظهورهم لأنهم لا يفرون من القتال كما ليس هم جبناء حتى يتأخروا عن موارد الردى.

مستطيل، وذنبها بجريد النخل، وقوائمها بالرماح الصلبة. وهي في سرعتها لا تمس الأرض إلا مساً يسيراً. كما يحلف الإنسان ليفعلن هذا الشيء فيفعل منه اليسير ليتحلل به من القسم. وهي لا تحتاج إلى تنعيل يقيها الحجارة لصلابة أخفافها. ويصف حركة ذراعيها وسرعة قلبها، فيرينا صورة مادية رائعة لم يُسبق إليها، ويستطرد معها إلى وصف شدة الحر. وينتقل بعد ذلك إلى مدح النبي والاعتذار إليه، ومدح المهاجرين من قريش. وفي هذا القسم من القصيدة ترق الفاظه، ويقل غريبه إلا في وصف الأسد، فمثله كمثل أي شاعر جاهلي يجعل لكل مقام مقالاً، فإذا تغزل أو استعطف أو رثى رقت عاطفته ورقت ألفاظه، وإذا افتخر أو مدح اشتدت عاطفته، وجزلت ألفاظه واشتد أسرها. وإذا وصف ناقته والقفار الموحشة والسباع الضارية، خشنت عاطفته، وخشنت معها ألفاظه. كما نرى أن كعباً مدح الرسول بأسلوب جاهلي صرف، دون أن يشير إلى فرض من فروض الدين الاسلامي، أو إلى آية من القرآن؛ ذلك بأنه كان يجهل حقيقة الإسلام يوم نظم قصيدته، وهولم يُسلم إلا رهبة وفرقاً<sup>(١)</sup>؛ ولا عجيب أن يشبه الولد أباه فيكون له خاصة أبيه زهير في براعة التشبيه والتصوير الحسي، وله خاصته أيضاً في إرسال الأمثال

(١) فرقاً: خوفاً ورعباً.

الحكمية. ونكون من المنصفين اذا قلنا: إن زهيراً وكعباً والحطيئة ينتحلون مذهباً أدبياً ذا صبغة واحدة. على أننا قد نجد في شعر كعب كثيراً من اللفظ الغريب، وقد عزاه الدكتور طه حسين إلى أن كعباً قد قلَّد فيه استاذ أبيه ونعني به أوس بن حجر، ولعله مصيب برأيه، فإن والده زهيراً كان راوية أوس وعنه أخذ أسلوبه الوصفي وما فيه من التشابه والصور المادية. وكان أوس جاهلياً قديماً يؤثر اللفظ الغريب في شعره. فجاء شعر كعب وعليه طابع المذهب الزهيري، أو المذهب الأوسي، مع إيثار الغريب من الألفاظ تشبهاً باستاذ أبيه. ونخلص إلى القول: إن في أبيات المدح عند كعب كما في غيرها في شعره من تأثير المذهب الزهيري الأوسي، فالصور المادية قوية صارخة، ولا سيما تشبيه النبي ﷺ بالأسد، ثم وصف هذا الأسد وصفاً قصصياً عرفناه عند زهير من قبل، إن كعباً كآبيه زهير يهذب شعره وينتقي ألفاظه، ويتخير معانيه، كما تظهر لنا حكمة زهير في قوله: «وكل ابن انثى وإن طالت سلامته...» وما أجمل التصوير رغم بداوة المعنى في وصفه هيئة الرسول، وما يستولي من الفزع على المائل في حضرته. وكأنني بالشاعر أراد الاعتذار من خوفه فلم يجد غير الفيل الضخم مثلاً للجرأة فقال: لو وقف الفيل موقفي ورأى ما رأيت، وسمع ما سمعت، لظل يُرعد خوفاً وهلعاً، فلا لوم

عليّ إذا هُبْتُ الرسولَ فهو أهيب عندي من أسد في بطن  
عُثْر<sup>(١)</sup> كثير الصيد، شديد الضرواة. ان في هذا الاعتذار،  
وفي ذلك التمثيل سذاجة جاهلية خشنة، ولكنها مع ذلك  
لطيفة مستحبة. ويبقى علينا أن نذكر أن هذه القصيدة هي من نوع  
المشوبات<sup>(٢)</sup> وهي القصائد التي شابها أي خالطها الكفر  
والاسلام.

---

(١) عُثْر: مأسدة: مكان كثير الأسود.

(٢) المشوبات، مفردا مشوبة.

## آثاره

أما آثار كعب، فتتمثل في قصائد متفرقة وأبيات منشورة هنا وهناك في كتب الأدب، وقد جمعت في ديوان يحمل اسمه، ولا يتجاوز عدد صفحاته المئة وعشر صفحات، أما موضوعات شعره فهي كغيرها من موضوعات الشعر الجاهلي، تتراوح بين الفخر والمدح والهجاء والثناء والغزل والوصف وبعض الحكم، إلا أننا يمكن أن نجد في شعره اتجاهين متباينين، لأن اسلام كعب قد غيّر في نهج شعره، وأمدّه بكثير من صور، ورقق ألفاظه ومعانيه حيث كان كعب في الاتجاه الأول - أي قبل الاسلام - يميل إلى الشدة والتفعر وخاصة في وصف الصحراء وحيوانها، بينما في الاتجاه الثاني - أي بعد الاسلام - نراه يميل إلى إرسال الحكمة وإلى الابتعاد عن الموضوعات الجاهلية، وأشهر قصائده على الإطلاق لاميته «بانت سعاد» التي تعدّ من المشوبات<sup>(١)</sup> وقد كثر محمّسو لامية كعب ومشطروها ومعارضوها وشراحها، كما ترجمت إلى الإيطالية، وقد عني بها المستشرق رينيه

---

(١) المشوبات: مفردا شوية وهي القصيدة التي شابها أي خالطها الكفر والإيمان..

باسميت Rene Basset، فنشرها مترجمة إلى الفرنسية ومشروحة شرحاً جيداً، وصدرها بترجمة لكعب وحياته، كما أطلق عليها اسم «البردة» لأن الرسول عليه الصلاة والسلام عند إلقاء كعب هذه القصيدة بين يديه خلع عليه بردته، فالمسألة إذا ليست في أن يكون الشعر مقلداً أو مكثرأ، وإنما العبرة فيما أنتج من شعر جيد، ومهما يكن من أمر، فللكعب قدمٌ راسخة في ميدان الشعر، وصيتٌ ذائع منذ أيام الجاهلية، حتى أن الحطيثة رجاه أن يذكره في شعره كما مرَّ معنا.

ميزته: إن كعباً كأبيه زهير يهذب شعره، وينتقي الفاظه، ويتخير معانيه، فهو يتنخل القوافي - أي القصائد - ويثقفها، ولا عجب فالولد سرُّ أبيه، فللكعب براعة أبيه في التشبيه والتصوير الحسي، وله خاصته أيضاً في إرسال الأمثال الحكمية. وقد نكون قد وضعنا الأمور في نصابها إذا قلنا أن زهيراً وكعباً والحطيثة يتحلون مذهباً أدبياً ذا صبغة واحدة. على أننا نجد في شعر كعب كثيراً من اللفظ الغريب، وقد عزاه الدكتور طه حسين إلى أن كعباً قلده فيه أستاذ أبيه أوس، وعنه أخذ أسلوبه الوصفي وما فيه من التشايب والصور المادية. وكان أوس جاهلياً قديماً يؤثر اللفظ الغريب في شعره. فجاء شعر كعب وعليه طابع المذهب الزهيري، أو

بالأصح المذهب الأوسي على رأي الدكتور طه حسين، مع إثارة الغريب من الالفاظ تشبهاً بأستاذ أبيه أوس بن حجر. فنحن اذاً الآن أمام مذهب ندعوه زهيرياً أو أوسياً إذا ذهبنا إلى أبعد من زهير.

منزله: قِيلَ لِيَخْلَفَ الأحمر: زهير أشعر أم ابنه كعب؟ قال: لولا أبيات لزهير أكبرها الناس لقلتُ أن كعباً أشعر منه. كما عدّه ابن سلام في الطبقة الثانية قبل الحطيثة. ولو جاز لنا أن نبني حكماً صحيحاً على شعره، لقلنا إن له من البراعة والتصرف في المعاني ما يضعه في مصاف أفحل الشعراء الجاهليين. وحسبنا أن نشير إلى تفننه في وصف الماء بعد أن مزج به الخمرة التي علّ بها ثغر سعاد، ثم إلى تفننه في وصف حركات المرأة الشكلى بعد أن شبه ذراعي ناقتة بذراعيها في السرعة والتقلب، ثم إلى إلحاحه في وصف ضراوة الأسد بعد أن فضل الرسول عليه في الهيبة. نعم حسبنا أن ننظر إلى ذلك لتبين منزلة الشاعر السامية، وبراعته في سوق المعاني والتلاعب بها وبالالفاظ، والغوص على دررها البعيدة القرار، وقصارى القول: إن كعباً شاعر مفطوراً بارعاً في فنه، ورسامٌ بديع التصوير، ومخترع واسع المخيلة والحيلة، وأحد أساتذة المذهب الذي صفّى الشعر ونقّحه وهذبه.

## شعره الحكمي

الحكمة في شعر كعب ليست أمراً طارئاً عليه أو هي مستبعدة من أن تصدر عن مثله، فهو ابن زهير بن أبي سلمى الشاعر الذي زخرت معلقته بكثير من المواعظ والحكم، كما أن مذهب المدرسة التي ينتمي إليها اشتهر كذلك بالروية والتنقيح وإجالة النظر، وهل الحكمة إلا نتاج التأني والتأمل والصبر، إذاً فليس غريباً أن يشمل ديوان كعب على حكم كثيرة مبثوثة هنا وهناك في ثناياه، وأكثرها يمثل مقطوعات صغيرة مستقلة يبدو عليها أثر الاسلام واضحاً، إذ يستفيد كعب من تعاليم دينه الجديد كثيراً من الآراء، ويستمد منها ما يخفف عن نفسه غير الدهر وصروفه التي أوجعت قلبه ولوحتة بنيران الهم والفاقة، فإذا بشعره الحكمي يتحول إلى نفثات خالدة ينفثها كل من يكابد من دهره ما كابده كعب منه، فهي مستلة من الذات، ومشبعة بتعاليم المدرسة الاسلامية التي هي صوب لا ينقطع، ونبع لا يصمت عن الدفقان، يقول كعب:

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني  
سعي الفتى وهو مخبوء له القدر



يسعى الفتى لأمورٍ ليس يُدرِكها  
والنفسُ واحدةٌ والهمُّ منتشرُ  
والمرء ما عاش ممدودٌ له أملُ  
لا تنتهي العين حتى ينتهي الأثرُ

فالتعاليم الإسلامية في هذا الشعر واضحة كلِّ الوضوح،  
وهي تشعرنا كيف يسلمُ كعبُ بقضاء الله وقدره، كما تشعرنا  
مدى تغلغل الإسلام في روح كعب ونفسه، والذي استطاع  
أن يقضي فيها على نزعاتها الجاهلية ويحوّل نقيمتها على  
الحياة إلى أمل، بعباء الله وفرج قريب من رحمته الواسعة.

وهكذا نرى كعب في كلِّ أشعاره الحكيمية يستمدّ زاداها  
من الإسلام حيث يوكل أمره إلى الله الذي وحده يتكفل  
العباد، ويمنّ عليهم بالرزق والنعمة والافضال، يقول كعب:

أعلمُ أنني متى ما يأتني قدري  
فليس يحبسهُ شعٌ ولا شفقُ  
بيننا الفتى معجبٌ بالعيش مغتبطُ  
إذا الفتى للمنايا مُسكَمُ غلقُ  
والمرء والمال ينمى ثم يذهبُ  
مرُّ الدهور ويفنيه فينسحقُ

فلا تخافي علينا الفقر وانتظري  
فضل الذي بالغنى من عنده نشق  
ان يفرّ ما عندنا فالله يرزقنا  
ومن سوانا ولسنا نحن نرتزق

ففي هذه الآيات يقترب كعب من أن يكون واحداً من  
زهاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر الشخص منهم  
في رزق غدٍ، بل كان منهم من يرى أن ذلك خطيئة لا تغتفر،  
لأن ربّ العباد مكفّل برزقهم، وليس عليهم إلا أن يسلموا  
أمرهم له، فهو القادر على أن يرزقهم وسواهم من الناس  
قاطبة.

ويمضي كعب في أشعاره الحكيمية محملاً لها ما شاء من  
تعاليم الاسلام التي تدعو إلى التوكّل على الله في كلّ أمر،  
والسعي الدائم الذي لا يقعد المرء عنه خوفاً من أذى أو  
مكروه، لأن كلّ شيء يحدث للمرء بمشيئة من الله وأمر من  
قضائه العادل، يقول كعب:

فأقسمت بالرحمن لا شيء غيره  
يمين امرئٍ برٍّ ولا أتحلّل<sup>(١)</sup>

---

(١) لا اتحلّل: لا استني.

لاستشعرنْ أعلى دريسِي مسلماً  
لوجه الذي يحيي الأنام ويقتل<sup>(١)</sup>  
هو الحافظُ الوسنان بالليل ميتاً  
على أنه حيٌّ من النوم مثقل<sup>(٢)</sup>  
من الأسود الساري وإن كان ثائراً  
على حدّ ناييه السَّمَامُ المثل<sup>(٣)</sup>  
ويدلُّ ديوانه، كما يدلُّ تأخره في اسلامه على أنه كان فيه  
شرٌّ كثير، إذ نراه دائماً في شعره الجاهلي مفاخرأ متوعداً  
مهدياً، حتى إذا أسلم، أخذت نفسه تصفو وتتخلّص ممّا  
علق بها من أدران الجاهلية وعصبياتها، وأخذ يستشعر معاني  
الاسلام الروحية، وما دعا إليه من الاخلاق الفاضلة والقيم  
السمحاء، حتى لنراه يترفع في هجائه عن السخط والسُّباب  
وذكر المثالب ويميل فيه إلى الصفح الجميل، ويكثر من  
الحكم والمواعظ التي يريد منها الاقناع وكفّ الأذى،  
والابتعاد عن المهاترة فاسمعه يقول:

إن كنت لا ترهب ذمّي لما  
تعرف من صفحي عن الجاهل

(١) الدّريس: الثوب البالي، كنى بذلك عن حسن إسلامه وتوكله.

(٢) الوسنان: النائم.

(٣) الأسود: الأفعى السامة. والساري: الذي يسير ليلاً. المثل: المجمع.

فاخشَ سكوتي إذا أنا منصتُ  
 فيك لمسموع خنا القائل<sup>(١)</sup>  
 فالسّامع الذّامُ شريكٌ له  
 ومطعم المأكول كالآكل  
 مقالة السوء إلى أهلها  
 أسرعُ من منحدر سائل  
 ومن دعا الناس إلى ذمّه  
 ذمّوه بالحق وبالباطل  
 ولا تهجُ إن كنت ذا إربةٍ  
 حربَ أخي التجربة العاقل<sup>(٢)</sup>  
 فإن ذا العقل إذا هجتهُ  
 هجت به ذا خبلٍ خابل<sup>(٣)</sup>  
 فكعب كما نرى ينهى المسيء الذي يتناول الناس بلسانه  
 عن فعله لأن ذلك في كثير من الاحيان يرتدّ عليه هجاء مرّاً  
 ومقذعاً، فبناء النفوس وإصلاحها أمرٌ صعب، بينما الافساد  
 في الأرض سرعان ما ينتشر كما تنتشر النار في الهشيم .

(١) الخنا: الفحش في القول.

(٢) الارية: الدهاء.

(٣) خبل: المصاد في العقل، والخابل: المحبوس.

وهكذا نجد كعباً في كلّ شعره الحكمي يتمثل المعاني  
الاسلامية ويتأدّب بأدائها التي نراها تحدث تغييراً هاماً في  
نفسيته وسلوكه كما تحدث تغييراً واضحاً في شعره الذي  
يميل فيها إلى السلاسة واللين، والابتعاد عن غلظة الجاهلية  
وجفافها.

## الفخر والحماسة في شعره

رأينا، كما يرى مؤرخو الأدب، أن نجعل الفخر والحماسة باباً واحداً لما بينهما من الاتصال الوثيق، لأن الحماسة ليست سوى فخر الفارس ببطولته وذكر وقائعه ووصف فرسه وسلاحه. وباب الفخر في الجاهلية، وإن اتسع إلى موضوعات غير الفروسية كالنسب والسيادة والكرم والاخلاق والأهل، والولد والفصاحة، لا يخلو أصلاً عن المباهات بالشجاعة والاقدام. فالفخر والحماسة توأمان متلازمان، فلا فخر بدون حماسة، وكذلك الحماسة هي الفخر بعينه. ويحسن بالفروسية أن يرافقها شرف المحتد ومكارم الاخلاق، وشعر الفرسان يشتمل على جميع الفضائل الجاهلية، وأخصها فضيلة الفروسية، حيث ينصرف الشاعر إلى ذكر حروبه مبالغاً في وصف البطل الذي يبارزه ويسطو عليه، أو وصف المعركة التي يخوض غمارها ويلقي بنفسه في مهالكها.

ويحدث عن القتلى والأسرى والسبايا والغنائم، فلا يخلو حديثه عن تكثر أو غلو. والتكثر والغلو من أهم خصائص شعر

الفروسية، حيث يجعل الشاعر منهم الواقعة الصغيرة تبدو وكأنها ملحمة كبيرة، والعدد القليل من الرجال يبدو جيشاً عرمرماً، والنفير القليل من القتلى يعد بالمئات والألوف. على أن غلوهم لم يأت مستقبلاً، وهو وليد العاطفة المتحمسة التي تجعله قريباً محبباً إلى النفس، والفطرة الساذجة التي تعطيه مسحة من الجمال الجذاب الذي يخالف الحقيقة ويصدق في شعوره الفني، ويجري مع الطبع في نشوة الخاطر المتدفق، لا يهيئه العقل عمداً في يقظة الفكر المتكلف. والشعر الحماسي كسائر الشعر الجاهلي، يعتمد في الأكثر والأعم على الوصف، وفي الأقل على القصص، وهو مع كل ذلك وفي كلا الحالين يؤثر الإيجاز على التطويل، ويلمح الجزئيات دون الكلّيات، ويتعلق بالمادة أكثر من الروح. فلو أراد أن يصف معركة مثلاً اجتزأ ببضعة أبيات ترينا جواده وسيفه ومضات من البرق جميلة في سرعتها وتلويناتها. غير أننا لا نخرج منها بفكرة عامة أو صورة تامة عن الواقعة، فما ندري كيف جرت حركات المتحاربين، وكيف انتظم الجيشان، وأين وقف الفرسان، وأين وقفت بقية الفرق كالرجالة ورؤاة السهام والنبال، وكيف تم الهجوم والالتحام. ولا نكاد نسمع من الأصوات إلا غماغم يختلط فيها وقع السلاح، وصياح الفرسان، وحممة الجياد،

وددقة الحوافر، ولا نرى من صفات السلاح إلا سيفاً قاطعاً،  
ورمحاً طويلاً، ودرعاً سابغة، وقليلاً ما يسهب الشاعر ويدقق  
في أوصاف السلاح كما يسهب ويدقق في نعت جواده ونعت  
الفارس المقاتل أو الخصم. على أن صورة الفارس لا تظهر  
في الغالب جلية، بل يتركها غامضة مغطاة مشوشة، ويعطينا  
المعركة على الاجمال تهاويل مقطعة الخطوط والأوصال لا  
يتألف من أجزائها وحدة موضوعية متلاحمة. فهذا كعب  
يُحْتَفَتَاتِهِ عَلَى السُّؤَالِ عَنْ مَشْهَدِهِ بِعَاثٍ، وَهُوَ مَوْضِعٌ فِي  
نَوَاحِي الْمَدِينَةِ كَانَتْ بِهِ وَقَائِعٌ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِي  
الْجَاهِلِيَّةِ، حَيْثُ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ غَسَّانُ بِالسُّيُوفِ الْقَوَاطِعِ وَالرَّمَاكِ  
الْبَوَاتِرِ، وَهِيَ هِيَ يَفْخَرُ بِنَفْسِهِ قَائِلاً: إِنَّهُ أَمْرٌ يُلْزَمُ الْحَيَاءَ  
وَيَحْفَظُهُ، وَشِمَتُهُ كَرَمُ الطَّبِيعَةِ، وَتَجَنَّبَ الْفَحْشَ فِي الْكَلَامِ،  
وَيَفْخَرُ أَيْضاً بِقَوْمِهِ، فَهُوَ مِنْ مَعْشَرٍ فِيهِمُ السَّادَةُ النُّجَبَاءُ،  
وَلِيُوثُ غَابَ تَضَطُّرُّ الْحَرْبِ، يَعُولُونَ بِالْأَدْرُوعِ وَيَجْلُونَ بِكُلِّ  
فَارَسٍ مَقْدَامٍ يَفْدَى عَلَى الْمُلُوكِ وَيُصْلِحُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ، مِثْلَ  
الشَّهَابِ حِينَ يَتَوَقَّدُ بِالشَّجَرِ الصَّلْبِ الَّذِي يَبْقَى زَمناً لَا  
يَنْطَفِئُ:

هَلْ سَأَلْتِ وَأَنْتِ غَيْرُ عَيْيَةٍ<sup>(١)</sup>  
وَشِفَاءُ ذِي الْعِيِّ السُّؤَالِ عَنِ الْعَمَى

(١) عَيْيَةٌ: عجز عن النطق بالكلام. فلم يستطع بيان مراده منه.



عن مشهدي يُبعث إذ دلفت له  
 غَسَّانٌ بالبيضِ القواطعِ والقَنَا<sup>(١)</sup>  
 ...إني امرؤُ أقني الحياءِ وشيمتي  
 كَرَمُ الطَّبِيعَةِ والتَّجَنُّبُ لِلخَنَا<sup>(٢)</sup>  
 من معشر فيهم قُرُومٌ سَادَةٌ  
 وَلُيُوثٌ غَابَ حينَ تضطرمُّ الوَغَى<sup>(٣)</sup>  
 وَصُورٌ بالأبدانِ كُلُّ مُسْفَرٍ  
 مثل الشَّهابِ إذا تَوَقَّذَ بالغَضَا<sup>(٤)</sup>

وها هو أيضاً يفخر بقومه مُزينة وبني خُفاف يوم وُجَّ أي  
 الطائف حيث صبحوا أهل الحَبَلَتِ وهي أرض تسكنها قبائل  
 مِنْ مُزينة وقيس، بألف من سُلَيم وألف من بني عُثمان  
 فأوسعوهم ضرباً بالسيوف، وطعنأ بالرماح، ورمىأ بالسهام،  
 وقد اشترك منهم في هذه المعركة الشُّبَّان والشيب، وهم

---

(١) بعث: موضع في نواحي المدينة كانت به وقائع بين الاوس والخزرج في  
 الجاهلية. دلفت، تقدمت. البيض: السيوف.

(٢) اقني الحياء: ألزمه وأحفظه. الخنا: الفحش في الكلام.

(٣) القروم: السادة.

(٤) الأبدان: الدروع. المسفر: الذي يفد على الملوك ويصلح بين القبائل.

الغضا: شجر من الإبل خشبه من أصلب الخشب وجره يبقى زمناً طويلاً  
 لا ينطفئ.

يعتلون صهوات الجياد الجُرد أي القصيرة الشعر لكثرة  
استخدامها في المعارك، وقد غنموا إلى جانب الغنائم العينية  
الأجر والثواب، وأما خصومهم فرجعوا نادمين على مخالفتهم  
رسول الله ﷺ حيث يقول:

نَفَى أَهْلَ الْحَبْلَقِ يَوْمَ وَجٍّ  
مُزِينَةٌ جَهْرَةً وَبَنُو خُفَافٍ<sup>(١)</sup>  
صَبَحْنَاهُمْ بِالْفِ مِنْ سُلَيْمٍ  
وَأَلْفٍ مِنْ بَنِي عُثْمَانَ وَافٍ<sup>(٢)</sup>  
حَدَّوْا أَكْتَافَهُمْ ضَرْباً وَطَغْنًا  
وَرَمِيًّا بِالْمُرَيْثَةِ الْلطَافِ<sup>(٣)</sup>  
رَمَيْنَاهُمْ بِشَبَابٍ وَشَيْبٍ  
تُكَفِّفُ كُلَّ مُتَمَنِّعٍ الْعِطَافِ<sup>(٤)</sup>  
تَرَى الْجُرْدَ الْجِيَادَ تَلُوحُ فِيهِمْ  
بِأَرْمَاحٍ مَقُومَةُ الثُّقَافِ<sup>(٥)</sup>

(١) الحبْلَق: الغنم الصغار، أو الأرض التي يسكنها قبائل مزينة وقيس. وج: الطائف.

(٢) بنو عثمان: من مزينة. الوافي: التام.

(٣) حدوا: تبعوا. المريثة: السهام.

(٤) العطاف، الواحد عطف: جانباً الرجل من رأسه إلى وركه.

(٥) الجرد: الخيول القصيرة الشعر. مقومة الثقاف: أي مقومة التثقيف،  
والثقاف حديدية يقوم بها الشيء المعوج.

وَرُحْنَا غَانِمِينَ بِمَا أَرَدْنَا  
 وراحوا نَادِمِينَ عَلَى الْخِلَافِ<sup>(١)</sup>  
 فَجَزْنَا بَطْنَ مَكَّةَ وَامْتَنَعْنَا  
 بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْبَيْضِ الْخِفَافِ<sup>(٢)</sup>  
 أَرَادُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ إِلَهًا  
 كَفَىٰ بِاللَّهِ دُونَ اللَّاتِ كَافٍ<sup>(٣)</sup>

وهذه القصيدة من إسلامياته قالها في يوم فتح مكة وفي  
 غزوة حنين والطائف وكُنْ في غزوة واحدة غزاهنَّ  
 النبي ﷺ<sup>(٤)</sup>.

وهذه قصيدة أخرى يفخر فيها بنفسه وبأبيه. وكان كعب قد  
 استجاب لطلب الحطيثة وذكره في شعره «فمن للقوافي . . .»  
 ولكنه لم يذكر مزرداً بن ضرار فغضب هذا الأخير وقال أبياتاً  
 في كعب منها:

---

(١) أراد: غنمنا من محاربتهم الأجر والثواب، أما هم فراحوا نادمين على  
 مخالفتهم لرسول الله ﷺ.

(٢) جزنا: قطعنا. البيض الخفاف: السيوف السريعة العمل.

(٣) اللات: صخرة مربعة شاعت عبادتها في الطائف. العزى: إحدى آلهة  
 الجاهلية عبدها العرب قبل الإسلام إلى جانب اللات ومناة.

(٤) وقيل أن هذه القصيدة لبجير بن زهير شقيق كعب وحجتهم في ذلك أن  
 كعباً أسلم بعد منصرف النبي ﷺ من الطائف.

فباستك إذا خلّفتني خلفَ شاعرٍ  
 من الناس لم أكْفَى ولم أتَخَلَّ  
 فقال كعب هذه الأبيات في معرض الردِّ عليه:  
 ألا أبليفا هذا المعرُضُ أنَّه  
 أيقظان قال القولَ إذ قال أم حَلَمَ  
 فإن تسألَ الأقوامَ عني فإنني  
 أنا ابن أبي سُلمى على رَغَمٍ مَنْ رَغَمٍ  
 أنا ابنُ الذي قد عاش تسعينَ حِجَّةَ  
 فلم يَخْزَ يوماً في مَعَدٍّ ولم يُلَمَّ<sup>(١)</sup>  
 وأكرمَهُ الأكفَاءُ في كلِّ معشِرٍ  
 كرامٍ فإن كذَّبْتَنِي فاسألَ الأُمَمَ  
 أتى العُجَمَ والآفاقَ منه قصائدُ  
 بَقِيْنَ بقاء الوحي في الحَجَرِ الأصَمِّ  
 أنا ابنُ الذي لم يَخْزُنِي في حَيَاتِهِ  
 ولك أخِرُهُ حتى تَغِيَّبَ في الرَّجَمِ<sup>(٢)</sup>  
 فأعْطِي حَتَّى ماتَ مالاً وَهَمَّةً  
 وَوَرَّثَنِي إذ وَدَّعَ المَجْدَ والكَرَمَ

(١) المعروف أن زهيراً ولد في نجد نحو ٥٣٠ م وتوفي نحو ٦٢٧ م. مَعَدٍّ: مَعَدَّةٌ: جد  
 جاهلي منه بعض القبائل العربية التي نشأت في شمالي جزيرة العرب.

(٢) الرَّجَمُ: القبر، اللحد.

وكان يُحامي حين تَنزُلُ لَزْبَةً  
 من الدَّهْرِ في ذِيانٍ إن حوضها أَنهَدَمَ <sup>(١)</sup>  
 أَقُولُ شَبِيهَاتٍ بِمَا قَالَ عَالِماً  
 بِهِنَّ وَمَنْ يُشَبِّهُ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ  
 وَيَأْتِي بِفَخْرِهِ عَلَى ذِكْرِ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ مِنَ الْمَزْنِينِ فيقول:  
 أَعْيَّرْتَنِي عِزًّا عَزِيزاً وَمَعِشَرًا  
 كِرَامًا بَنَوْا لِي الْمَجْدَ فِي بَاذِخٍ أَشْمَ <sup>(٢)</sup>  
 هُمُ الْأَصْلُ مِنِّي حَيْثُ كُنْتُ وَإِنِّي  
 مِنَ الْمَزْنِيِّينَ الْمُصَفِّينَ بِالْكَرَمِ  
 هُمُ ضَرْبُوكُمْ حِينَ جُرْتُمْ عَنِ الْهَدْيِ  
 بِأَسْيَافِهِمْ حَتَّى اسْتَقَمْتُمْ عَلَى الْقِيَمِ  
 وَسَاقَتْلُ مِنْهُمْ عُصْبَةً خِنْدَفِيَّةً  
 فَمَا لَكَ فِيهِمْ قَيْدُ كَفٍّ وَلَا قَدَمٌ <sup>(٣)</sup>  
 هُمْ مَنَعُوا حَزْنَ الْحِجَازِ وَسَهْلَهُ  
 قَدِيمًا وَهُمْ أَجْلَوْا أَبَاكَ عَنِ الْحَرَمِ <sup>(٤)</sup>

(١) اللَّزْبَةُ: الشدة. وقوله: إن حوضها انهدم، أي إن ناهضا سوء أو أملت بها نائبة.

(٢) الباذخ الاشم: الشامخ الرافع الرأس.

(٣) خندفية: نسبة إلى خندف امرأة الياس بن مضر، وخندفت الأم في أثره (أي هرولت)، أراد لا كف له يقود بها أرمتهم ولا قوم له في رياستهم.

(٤) الحزن: ما غلظ من الأرض.

هم الأسدُ عند البأس والحشدُ في القِرَى  
 وهم عند عَقْدِ الجارِ يُوفُونَ بالذَّمِّ (١)  
 فكَمَ فيهِمُ من سَيِّدٍ متوسِّعٍ  
 ومن فاعِلٍ للخير إن هَمَّ أو عَزَمَ  
 متى أدُعُ في أوسٍ وعثمانُ يأتني  
 مساعِرُ حربٍ كُلُّهُمُ سادةٌ دَعَمَ (٢)

المدح في شعره:

المدح في الجاهلية من الأبواب الرئيسة لاتصاله بالحياة  
 القبلية. فقد كان على الشاعر الجاهلي ان يدافع عن قومه  
 وأعراضهم، ويمدح ساداتهم وفرسانهم، ويطري فضائلهم  
 ويمجد أعمالهم وبطولاتهم، ولذلك كانت القبيلة تغتبط  
 وتستبشر إذا نبغ فيها شاعر، وإن لم يكن هذا الشاعر من  
 الفرسان، لأن حماية الأعراض والأحساب لا تقل شأنًا عن  
 حماية الأرواح والأموال.

والشاعر الجاهلي مضطر كغيره من البدو إلى الترحل  
 والنزول على قبيلة غريبة، ضيفاً أو جاراً، فتحسن هذه

---

(١) القِرَى: الضيافة. يوفون بالذمم: يوفون بعهودهم لمن يستجير بهم.  
 (٢) أوس وعثمان: ولدا عمرو بن أد، وأمهما مزينة بنت كلب بن وبرة.  
 المساعير: الذين يوقدون الحرب ويسعرونها. الدعم، الواحدة دعامة: ما  
 يدعم بها البيت والبناء، أراد أنهم يوكل إليهم جليل الأعمال وعظيمها.

وفادته، وتبالغ في قراء وإيناسه وإكرامه، أو تجيره وتؤمنه من خوف، وتساعد على قضاء حاجته، فيرى أن من واجبه أن يشكر لها صنيعها، فيمدح السيد الذي أضافه أو أغاثه، وهذا طبعاً لا يعد من باب التكسب، وإنما هو شكر على معروف، لا استجداء لصلة أو عطاء، ولم يُعرف التكسب بالمدح إلا عندما أخذ الشعراء ينزحون عن قبائلهم ويرددون في الأصقاع والأحياء الغربية، ويقرعون أبواب الملوك والسوقة، مادحين مستجدين، هاجين من لا يحسن لهم العطاء، حيث هبطت منزلة هؤلاء الشعراء القبليين الذين أبوا أن يقبلوا الصلة ويريقوا ماء الوجه.

على أن المدح، وإن صار إلى التكسب الدنيء في أواخر العصر الجاهلي، فقد كان تأثيره عظيماً في الأشخاص والقبائل، يرفع شأن الخامل، وينشر ذكره بين الناس، وإن التجاء طلاب السيادة إلى الشعراء في مفاخراتهم دليل على ما للشعر من الأثر البالغ في النفوس، وقد يختلف الشعراء في مبالغتهم بين مقل ومكثر، ولكنهم لا ينحون بحال من الأحوال إلى المحال، لأن طبع البدوي في صفاته ونقاته ينفر من الغلو المستقبح أو المستحيل إلا إذا رانت عليه العاطفة في حزن أو حماسة، فتخرج عندئذ هذه العاطفة به إلى غاية الإغراق حتى تؤدي به إلى الكذب في بعض الأحيان، وحتى هذه

المغاليات كانت مأنوسة في المفاجر والمراثي أكثر منها في المدائح ؛ ولكن تحوّل الشعر إلى التكبّس جعل الشعراء يبالغون في تعظيم الأشراف والملوك، تملقاً لهم واستدراراً لأكفهم، ورغم هذا لم تكن السذاجة الفطرية تعدو تصوراتهم، ولا يختلف مدح الملوك في اعتماد الفضائل عن مدح السادات، لأن ملوك الشام والعراق لم يتعدوا بذهنيتهم وأفكارهم عن سيد القبيلة، وإن أصابوا طرفاً من الحضارة. فالمدح الذي يصلح لصاحب القبة الحمراء، يصلح أيضاً لأمر جلّجّ والبريص، ولرب الخورنق والسدير<sup>(١)</sup>.

وكان ملوك غسان ولخم يقربون شعراء البادية، ويجزلون لهم الصلات ليتغنّوا بعظمتهم في الأحياء القريبة والبعيدة، فيتمكن بذلك سلطانهم في نفوسها، وينبسط نفوذهم على عشائرها، لأنهم كانوا يحتاجون إلى مؤازرتها في حروبهم واقتصادياتهم، وحراسة قوفلهم، فقضت عليهم السياسة بتقرب شعرائها وإكرامهم للاستفادة من مدائحهم، كما قضت عليهم بذلك ذهنية البدوي في ارتياحه إلى الحمد والثناء، فمدحهم الشعراء مثل مدحهم لساتات قبائلهم، وأضافوا عليهم سوابغ الأوصاف التي تعودنا سماعها منهم تحت الخيام.

---

(١) الخورنق والسدير: قصران للنعمان.



وكذلك المدح الديني ووصف الحفلات في الأعياد الكبرى، ويتخلل المدح الحضري الأخبار والأساطير، فتستدل بها على الثقافة التي اكتسبها شعراء البدو في رحلاتهم إلى المدن والأمصار، ومخالطتهم للشعوب المتحضرة.

ومما يُذكر للشاعر الجاهلي أنه حافظ على كرامته في مدح الملوك والسادات، فلم يتذلل لهم وهو في أشد الحاجة إلى رفدهم ومعروفهم.

وكان الشعراء في الجاهلية يستهلون مدائحهم، في الغالب، بذكر الديار الخالية وهو ما عُرف بالوقوف على الأطلال، كانوا يقفون عليها للبكاء أو للتحية والسؤال، معددين المواضع التي توصل إليها، أو تحيط بها، متشوقين إلى أحبتهم يوم كانوا يسكنوها ويعمرونها، مشبيين بهم، مستعدين ذكرى فراقهم، ثم يرحلون على ناقاتهم مفرجين همهم، قاصدين إلى الممدوح، فيصفونها عضواً عضواً وصفاً دقيقاً، يصورون سرعتها ونشاطها، ثم ينتقلون إلى المدح بعد هذه المقدمة التقليدية التي تلزم الممدوح أن يراعي حق الشاعر في قصده إليه دون غيره من مكان بعيد يعاني السهر والنصب، وسير النهار وسرى الليل، ولفح السُّموم، وربما

عمد الشاعر إلى ناقته فجعلها تنظلم شاكية مما يجشمها من مشقة الأسفار وتحمل أهواله ومخاطره.

وقد تلوم المرأة زوجها والبنت أباهما على كثرة أسفاره وترحاله، خائفة عليه، وقد تكون المرأة رفيقة له في السفر وطلب الرزق.

لم يخرج كعب في مدحه عن هذا النهج في بناء قصيدته، إلا أنه لم يُعرف عنه أنه كان ممن تكسبوا بشعرهم، وقد مرَّ معنا قصيدته التي مدح فيها الرسول ﷺ، (بانت سعاد) ومدحه للأنصار، (من سره كرم الحياة). وها هو يمدح علياً ابن أبي طالب، في قصيدة طويلة مطلعها: (هل حبل رملة) سار فيها على النهج الجاهلي المتعارف عليه، والذي تحدثنا عنه آنفاً، حيث يقول:

إِنْ عَلِيًّا لَمِيمُونَ نَقِيبَتُهُ

بِالصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَفْعَالِ مشهور<sup>(١)</sup>

صَهْرُ النَّبِيِّ وَخَيْرُ النَّاسِ مُفْتَخَرًا  
فَكُلُّ مَنْ رَامَهُ بِالْفَخْرِ مَفْخُورٌ

---

(١) النقية: السجية والطبيعة.

صَلَّى الطُّهُورُ مَعَ الْأُمِّيِّ أَوْلَهُمْ  
 قَبْلَ الْمَعَادِ وَرَبُّ النَّاسِ مَكْفُورٌ<sup>(١)</sup>  
 مُقَاوِمٌ لَطْفَاةِ الشُّرْكِ يَضْرِبُهُمْ  
 حَتَّى اسْتَقَامُوا وَدِينُ اللَّهِ مَنْصُورٌ<sup>(٢)</sup>  
 بِالْعَدْلِ قُمْتَ أَمِيناً حِينَ خَالَفَهُ  
 أَهْلُ الْهَوَى وَذَوُو الْأَهْوَاءِ وَالزُّورُ  
 يَا خَيْرَ مَنْ حَمَلْتَ نَعْلًا لَهُ قَدَمٌ  
 بَعْدَ النَّبِيِّ لَدَيْهِ الْبَغْيُ مَهْجُورٌ  
 أَعْطَاكَ رَبُّكَ فَضْلاً لَا زَوَالَ لَهُ  
 مِنْ أَيْنَ أَنْسَى لَهُ الْآيَامُ تَغْيِيرُ

الهجاء في شعره:

والهجاء كالممدح باب رئيسي متصل بسياسة القبيلة وحياتها الاجتماعية، لأنها كانت تدفع شاعرها إلى الذود عن أعراضها، والرد على الشعراء الذين يهجونها أو يحاولون النيل منها، فينشر مثالب<sup>(٣)</sup> أعدائها، معدداً انكساراتهم.

(١) الطهور: أراد علياً عليه السلام. الأمي: النبي محمد ﷺ أراد أن علياً كان أول السابقين إلى الإسلام.

(٢) حتى استقاموا: أي ثابوا إلى رشدهم.

(٣) مثالب: معائب.

وكان على الشاعر أيضاً أن يذود عن حلفاء قبيلته لما بينهم وبينها من تبادل منفعة في الدفاع المشترك، وإذا استجار شاعر بقبيلة واعتدّى عليه، عَنفها وهجاها ليحرضها على أخذ حقه، لأنه يعلم حق العلم أن الجوار مقدس عندهم لا يجوز انتهاكه أو التفريط فيه، كما فعل كعب عندما خرج أخوه بجير والحطيئة ورجل من بني بدر في رحلة صيد وهم عَزَلُ من السلاح، فلقبهم زيد الخيل في عُدَّة، فأخذهم ولكنه خلى سبيل الحطيئة لفاقته وفقره. وافتدى بجير نفسه بفرس كميت، قيل إنها لأخيه كعب، وافتدى البدرى نفسه بمائة من الإبل، فلما بلغ الخبر كعباً، وكان يومها ينزل في بني ملقط، قال هذه الأبيات يحرضهم على أخذ الكميت من زيد:

فيا راكباً إما عَرَضْتَ فَبَلَّغْتَ

بني مِلْقَطٍ عني إذا قيلَ من عني<sup>(١)</sup>

فما خِلْتُكم يا قومُ كنتمُ أذِلَّةُ

وما خِلْتُكم كنتمُ لمختلسٍ جَنَى

لَقَدْ كنتمُ بالسَّهْلِ وَالْحَزَنِ حِيَّةُ

إذا لدَغَتْ لم تَشْفِ لدَغَتِها الرُّقَى<sup>(٢)</sup>

(١) بني ملقط: حَيَّان من طيء. عني: أراد وقصد.

(٢) الحزن: ما غلظ من الأرض. الرُقَى: الواحدة رُقِيَّة: هي أن يستعان بقوى تفوق القوى الطبيعية للحصول على أمر، وهو يشير بذلك إلى منعة بني ملقط ومكانتهم بين القبائل.

فإن تغضبوا أو تدركوا لي بذمة  
 لعمرُكم لمثلُ سعيكم كفى<sup>(١)</sup>  
 لقد نالَ زيدُ الخيلِ مالَ أخيكُم  
 وأصبحَ زيدٌ بعدَ فقْرٍ قد اقتنى  
 وإن الكُميتَ عندَ زيدٍ ذمامةٌ  
 وما بالكُميتِ مِن خَفاءٍ لمن رأى<sup>(٢)</sup>  
 وخرجوا بالهجاء إلى التكسب كما خرجوا إليه بالمدح،  
 فكان الشاعر منهم يُدعى إلى قبيلة غريبة عنه، فتضيّفه وتكرمه  
 ليهجوا أعداءها، على أن الذين تكسبوا بالمدح أكثر من  
 الذين تكسبوا بالهجاء، وأشد الهجاء عندهم ما كان قائماً  
 على التفضيل، خصوصاً بين الأقرباء، وخاصةً إذا كان كلُّ  
 منهم يطمع في السيادة.

إن الشاعر الجاهلي كان يتوخى، في الغالب، إسقاط  
 المهجو من منزلته الاجتماعية، بأن ينزع عنه الفضائل التي  
 يحب البدوي أن ينعت بها ليكون أهلاً للسيادة في قومه،  
 فيرميه بالجهل والحمق والجبن والبخل والغدر، وقد يغمز من  
 نسبه ليخرجه من قومه، أو يفضل أقرباءه عليه لجعل لهم  
 السيادة من دونه. ومثل هذا الهجاء له تأثير عظيم في

(١) أو تدركوا: أي إلى أن تدركوا.

(٢) الذمامة: الحق والحرمة.

نفوسهم، يستعظمون أمره ويخشون أصحابه، هذا فضلاً عن الهجاء الذي يهتك حرمت النساء وربّات الخدور ويصُـب الشتائم والقبائح، فإنهم كانوا يذمون الناطقين به ويمقتونهم، قال خلف الأحمر: «أشدّ الهجاء أعفه وأصدق». ويستحسن منه ما أخرجه الشاعر مخرج التهكم والتصوير الهزلي، فإنه يبلغ الشاعر بذلك مأربه من المرء الذي يهجو ويضحك منه السامع لسُخريته وعبثه وظرفه، وهذا ما نسميه الهجاء اللاذع.

وقد يأتي الهجاء عن دافع شخصي لا بعامل قبلي أو تكسبي، ولربما نالت الشاعر أذية من شخص ما، فيندفع إلى الانتقام منه بشعره. وأهاجي الجاهلين كمدايحهم صادقة التعبير عن ذهنية البدو وعاداتهم وتقاليدهم، وما تواضعوا عليه من الصفات المذمومة والمحمودة، فقد كانت القبيلة تعبر الأخرى بأن شعراءها يرحلون بمدحاتهم إلى الغرباء، وقلما خلت قبيلة من شاعر يرحل بشعره. وكانوا يعيرون الفارس إذا فرّ عن عشيرته في الحرب، مع أنهم لا يستنكفون من التمدّح بالفرار، إذا كان فيه منجاة للفارس من الهلاك. ويقبحون الغدر ويهجونه، قيل إنهم كانوا إذا غدر غادر فالعنوه! غير أنهم كانوا يستحلونه عند طلب الثأر لما يلحقهم من المذمة والمذلة في تركه. كما قد تسمع بعض الشعراء يرمي مهجوه

بالضعف، إذا عجز عن الظلم والغدر. والظلم عندهم مكروه إذا أصاب الاقرباء، محمود إذا أصاب الغرباء. وكان العرب كما رأينا يحتقرون الصناعات ويذمون أصحابها، وينسبونهم إلى الخمول والضعف، لأنه كان في اعتقادهم ينبغي للفارس أن يكسب رزقه بسيفه وغزواته. ولم تكن التجارة أحسن حظاً عندهم، وهي لم تعرف في غير المدن كمكة وشرب واليمن، فهجيت قريش بها لأن معظم أهلها كانوا تجاراً. وكانوا إذا اشتهرت قبيلة بأكلة عُيرت بها، ولو كانت من طيب الطعام، ومن عادة العرب أن يتهاجوا بكل شيء أفرطوا في استعماله، فقد هجيت بنو تغلب بكثرة روايتها معلقة عمرو بن كلثوم مثلاً، وقريش هجيت بالسخينة<sup>(١)</sup>. ولربما عُيرت القبيلة بعيب رجل واحد منها. قال الجاحظ في كتابه البخلاء: «والعرب إذا وجدت رجلاً من القبيلة قد أتى قبيحاً، ألزمت بذلك القبيلة كلها، كما قد تُمدح القبيلة بفعل جميل، وإن لم يكن ذلك إلا بفعل رجل واحد منها».

وكان الكرم من أسباب السيادة، فأكثرُوا من هجو الاشراف بالبخل والكراسة لإسقاط منزلتهم بين الناس، ويتبع ذلك ذكر النار وخمودها لقلّة طبائخهم، أو لخشيتهم أن يعشو إلى ضوئها الضيفان، وكذلك ذكر الكلب ونباحه في وجه الزائر

(١) السخينة: طعام رقيق يتخذ من الدقيق، لقبت به قريش.

لأنه لم يَألف الغرباء عند صاحبه، وسكوته عن النباح ليلاً لئلاً  
يَهْدِي الطارق ليلاً أو الحائر، فاتهموا البخلاء بتخنيق  
الكلاب.

وكان للهجاء تأثير في النفوس، فقد كانت السادات  
والقبائل تتصور منه، ولا تصبر عليه، لسيرة الشعر وكثرة  
رواته. وأفضل الهجاء ما جاء في الدفاع عن سياسة القبيلة  
والرد على خصومها، أو ما جاء في ذم الاخلاق الرديئة وخلا  
من الفحش وتمزيق الاعراض.

ولقد قُلَّ الهجاء في شعر كعب إلا ما كان من هجاء زوجته  
والشيب، رغم ما قيل عنه إنه كان رجلاً شريراً شرساً في  
جاهليته - طبعاً - لا يصيب خيراً من وجهه توجه إليه، ولا ينمي  
له مال، فعُتِبَ عليه امرأته، وأذنته بالظعن والفراق، فقال:

إِنْ عَرَّسِي قَدْ آذَنْتَنِي أَخْبِرَا  
لَمْ تُعْرَجْ وَلَمْ تُؤْمَرْ أَمِيرَا<sup>(١)</sup>  
أَجْهَاراً جَاهَرْتَ لَا عَنَبَ فِيهِ  
أَمْ أَرَادَتْ خِيَانَةَ وَفَجُورَا<sup>(٢)</sup>

---

(١) العرس: الزوجة، الحليلة. آذنتني: أعلمتني. لم تعرج: لم تعطف.

وقوله: لم تؤامر أميراً، أي لم تشاور في ذلك.

(٢) جاهرت: أعلنت، وجاهر مجاهرة وجهاراً بالشيء: كاشفة به ولم يخفه. لا  
عنب فيه. أي لا يعيبك.



مَا صَلَاحُ الزَّوْجَيْنِ عَاشَا جَمِيعاً  
 بَعْدَ أَنْ يَضْرِبَ الْكَبِيرُ الْكَبِيرَا<sup>(١)</sup>  
 فَاصْبِرِي مِثْلَ مَا صَبَرْتُ فَلْنَبْنِي  
 لَا أُنْخَالُ الْكَرِيمَ إِلَّا صَبُوراً..<sup>(٢)</sup>  
 وَهُوَ كَمَا تَرَى أَقْرَبَ إِلَى اللُّومِ وَالْعِتَابِ مِنْهُ إِلَى الْهَجَاءِ.  
 وَهَذِهِ آيَاتٌ يُلُومُ فِيهَا امْرَأَتَهُ لِأَنَّهَا لَامَتْهُ حِينَ نَزَلَ بِهِ  
 أَضْيَافٌ، فَنَحَرَ لَهُمْ بِكَرٍّ كَانَ لَهَا. فَقَالَ:  
 أَلَا بَكَرْتُ عَرَسِي تُؤَاتِمُ مِنْ لَحَى  
 وَأَقْرَبُ بِأَحْلَامِ النِّسَاءِ مِنَ الرُّدَى<sup>(٣)</sup>  
 وَقَوْلُهُ هُنَا: وَأَقْرَبُ بِأَحْلَامِ النِّسَاءِ مِنَ الرُّدَى: إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ  
 حَلَمَهُنَّ يَصِيرُ إِلَى فُسَادٍ؛ وَفِي الْمَثَلِ: «لَبَّ الْمَرْأَةُ إِلَى حَقِّ»  
 وَهُوَ يَضْرِبُ عُذْرًا لِلْمَرْأَةِ عِنْدَ الْغِيَرَةِ.  
 أَفِي جَنْبٍ بَكْرٍ قَطَعْتَنِي قَلَامَةً  
 لِعَمْرِي لَقَدْ كَانَتْ مَلَامَتَهَا ثَنًى<sup>(٤)</sup>

(١) الزَّوْجَانِ: الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ. يَضْرِبُ: يَهْجُرُ.

(٢) إِنَّمَا أَرَادَ: أَصْبِرِي عَلَى كِبَرِي كَمَا صَبَرْتُ عَلَى كِبَرِكَ، لِأَنَّ الصَّبْرَ مِنْ صِفَاتِ الْكَرَامِ.

(٣) عَرَسِي: امْرَأَتِي. تَوَاتِمُ: تَجَارِي وَتَسَايِرُ. لَحَى: لَامَ.

(٤) الْبَكْرُ: الْفَتَى مِنَ الْإِبِلِ. ثَنًى مَرَّةً تَلُو مَرَّةً، يُشِيرُ إِلَى لُومِ امْرَأَتِهِ لَهُ.

ألا لا تلومي وبَّ غيرك عارياً  
رأى ثوبه يوماً من الدهر فاكتسى.. (١)  
وقوله أيضاً:

أَلَا بَكَرْتُ عِرْسِي تَلُومُ وَتَعْذِلُ .  
وغيرُ الذي قالتْ أَعْفُ وَأَجْمَلُ  
وَلَمَّا رَأَتْ رَأْسِي تَبْدُلُ لَوْنَهُ  
بِإِضَاءٍ عَنِ اللَّوْنِ الَّذِي كَانَ أَوَّلُ  
أَرْنَتْ مِنَ الشَّيْبِ الْعَجِيبِ الَّذِي رَأَتْ  
وَهَلْ أَنْتِ مِنِّي وَبَّ غَيْرِكَ أَمْثَلُ (٢)  
كَلَانَا عَلَتْهُ كِبَرَةٌ فَكَأَنَّمَا  
رَمَتْهُ سِهَامٌ فِي الْمَفَارِقِ نُصَلُّ.. (٣)  
فالهجاء عند كعب قليل جداً فلا تكاد تلمح في شعره  
هجاء عن دافع شخصي أو بعامل قبلي أو تكسبي وإنما هو  
هجاء اشبه بالعتب واللولم منه بشيء آخر، فلا قساوة ولا  
فحش تلحظ في هجائه.

- (١) يقول: لا تلومي في أن نحرت بكرة أو كسوت عارياً فاكتسى. ولعله أراد  
أنه كان عارياً من ثوب الكرم لأنه لم يجد ما يجود به على اضيافه، فلما رأى  
ثوب الكرم، وهو نحر بكرها، لبسه.
- (٢) أرنت: أظهرت الخوف والجزع. يقول لست بأمثل مني فقد أصابك ما  
أصابني من الشيب والكبر. وب: دعاء يفيد الذم والشتم.
- (٣) فقد شبه الشيب بسهام لا نصال لها وقد ألبسه خماراً أبيض وذهب بسواد  
شعره.

الرثاء في شعره: يشغل الرثاء جانباً عظيماً من الشعر القبلي لأنه، في أكثره، مصروف إلى سادات العشيرة وفرسانها الذين لهم مآثر محمودة، فليس موتهم موت فرد واحد، وإنما هو بنيان قوم تهدم، وكلما دنت القرابة بين الشاعر والميت ازداد الرثاء حسرة وتفجعاً، وأروعه ما ندب به الأبطال المجندلون في ساحات القتال، فإن الشعراء، في رثائهم والبكاء عليهم وفي تعداد مناقبهم، يثيرون الاحقاد ويشحذون العزائم والهمم، ويهيجون القبيلة للحرب والأخذ بالثأر، وفيه تندفق العاطفة لوعةً وألماً، كما يشتد الغلو في ذكر أوصاف الميت وتعظيم المصاب به، فليس إلا الشعور بفيض دمعاً وأسى عليه، وفخراً ومباهاة به، ومدحاً وتأييماً له، فتتفاعل مشاعر مختلفة من خسارة وحزن، واعجاب واعتزاز، وضغن ونقمة. والتفجع والتهويل شائع عندهم في رثاء الملوك والرؤساء لا يقتصر فقط على الأهل والأقارب بل يتعدى ذلك إلى كل عزيز في القبيلة أو غيرها. وهم يصفون الميت بجميع الفضائل التي يفاخرون ويمدحون بها، غير أنهم يجعلون في كلامهم قرائن ودلالات تفيد أن المقصود به رثاء لا مدح، بما يتخلله من عبارات فيها ذكر المصاب والدفن والقبر، وفيه التلهف والتفجع ونداء الميت. وكثيراً ما ينعون تلك الفضائل مع الميت؛ فكأنها ذهبت بذهابه، فليس

بعده من يجيب إلى الندى، ولا من يحمي النساء والاموال  
ويغيث الملهوف، فقد دفنت المكارم بدفنه، وغُيِّب الاخلاق  
الفاضلة الحميدة الطيبة في ثراه.

قال ابن رشيقي في العمدة: «ومن عادة القدماء أن يضربوا  
الامثال، في المراثي، بالملوك الأعزّة، والامم السالفة،  
والوعول الممتنعة في قلل الجبال، والاسود الخادرة في  
الغياض، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار، والنسور  
والعقبان والحيّات لبأسها وطول أعمارها، وذلك في أشعارهم كثير  
موجود، لا يكاد يخلو منه شعر.» وإنما اتخذوا هذا الاسلوب  
ليستخلصوا حكمة ساذجة، وهي أن هؤلاء الملوك والابطال  
والجبابرة من الشعوب الخالية لم يعفّ الموت عنهم. ومثلهم  
الحيوانات الضارية، أو الممتنعة في الجوّ والأكام والادوية،  
أو الطويلة الاعمار. ولو نجا حيّ من الموت لكان أولئك  
الناس وتلك الحيوانات أولى من غيرهم بالنجاة. فيجدون  
عزاء لأنفسهم بضرب هذه الامثال التي تجعلهم أحياناً لا  
يندفعون مع العاطفة الجازعة المتفجعة، بل يستسلمون إلى  
القدر الذي يؤمنون بسلطانه ويخضعون لأحكامه القاسية  
راضين على كره بما قُسم لهم.

ولكن من الملاحظ أن الرثاء في شعر كعب يكاد أن يكون

نادراً، ولعل القصيدة الوحيدة التي قالها في هذه المناسبة هي في مقتل جؤي بن عائذ من مزينة، ورواية ذلك أن جؤياً هذا مرَّ على الأوس والخزرج وهم يقتتلون - وكانت الأوس من حلفاء مُزينة - فأصيب. فمر به ثابت أبو الشاعر حسان بن ثابت، فقال: يا أخا مُزينة، ما طرحك هذا المطرح؟ فقال جؤي وهو يجود بنفسه: أعطي الله عهداً لَيَقْتُلَنَّ بي منكم خمسون ليس فيهم أعور ولا أعرج.

وسارت كلمة جؤي هذه حتى اتت «عمق» وهو موضع قرب المدينة، وهي بلاد مزينة، فثاروا يريدون الخزرج طالبين بدم جؤي، والتقى الجمعان بيثرب فاقتتلوا فقتل من الخزرج عدَّة، وأسر ثابت بن المنذر، فأقسم مُقرن وهو رئيس بني مُزينة أن لا يأخذ فداءه إلا تيساً أسود لا قرن له. ولما رأوا أنه لا بدُّ من ذلك جاء بتيس أسود أجَمَّ، فذبحه مُقرن بسوق عكاظ وأطعم الناس لحمه. وقال ابن الكلبي: إنما كان ذلك ببعث، والمأسور هو حسان نفسه وليس ثابت أبوه. وزاد بقوله: ولما حلف مُقرن أنه لا يقبل الفداء إلا تيساً أسود أجَمَّ، أتوا حسان فقالوا: ما ترى؟ وغضبوا. فقال لهم: ما لكم تغضبون! ادفعوا إلى القوم أخاهم، أي التيس الاسود الاجمَّ، وخذوا منهم أخاكم، أي حسان بن ثابت. حيث يقول:

لقد ولى اليته جوي  
 معاشر غير مظلول أخوها<sup>(١)</sup>  
 فإن تهلك جوي فكل نفس  
 سيخليها كذلك جالبوها  
 وإن تهلك جوي فإن حرباً  
 كظنك كان بعدك موقدوها<sup>(٢)</sup>  
 وما ساءت ظنونك يوم تولي  
 بأرواح وفي لك مشرعوها<sup>(٣)</sup>  
 كأنك كنت تعلم يوم بُزّت  
 ثيابك ما سيلقى سالبوها<sup>(٤)</sup>  
 لنذرك والنذور لها وفاء  
 إذا بلغ الخزية بالغوها<sup>(٥)</sup>

---

(١) اليته: الحلفه. يقول: لقد ولى جوي يمينه قوماً لا تذهب دماؤهم باطلاً.

(٢) قوله: كظنك، أي كان موقدوها بعدك كظنك. فجعلها خبر كان.

(٣) تولي: تقسم، يقول: ما ساء ظنك ولا خاب يوم أقسمت بأرواح وفي لك مسدودها فصلق ظنك بهم.

(٤) بُزّت: سُلِبَتْ.

(٥) الخزية: الهوان والذل. يقول: لقد استرسل أهل الخزي بغيهم فوجب الوفاء لنذرك.

...ولو بَلَغَ القَتِيلَ فِعَالٌ حَيٌّ  
لَسَرَّكَ مِنْ سَيُوفِكَ مَنَظُّهَا<sup>(١)</sup>

الغزل في شعره: يقوم أكثر الغزل الجاهلي على الوصف والتشبيب، وأقله ما جاء قصصياً يحمل ذكريات المغامرات الغرامية، بعضه عفيف شريف، وبعضه لا يخلو من فحش ورذيلة، وخاصة شعر المترفين منهم. كما تسيطر عليه المادة من جميع نواحيه، ليس فيه من نفحات الروح إلا شيء يسيراً لا يكاد يُحس. وليس الغزل عندهم فناً مستقلاً، وإنما هو غرض من الأغراض المتعددة التي تشتمل عليها قصيدتهم، ولكن له حق الصدارة يُستهل به ثم يُنتهي منه إلى غيره.

ويبدأون غزلهم في الغالب بذكر الطلول الدارسة التي خلت إلا من الدمن والرياح التي تلعب بها، حيث عفت آثارها الأمطار، تسرح بها الأرام مطمئنة لخلوها من سكانها. ثم يذكرون بعد ذلك الفراق وكيف تم انتقال الطعائن، فتشجى نفوسهم، وتفيض عيونهم بالبكاء، ويستعيدون صورة الحبيب النائي آخذين بوصفه وتمثيله، ذاكرين اسمه الحقيقي، أو كائين عنه بغيره حرمة واستحياء.

---

(١) يقول: لو بلغك أيها القَتِيلُ أفعال قومك من بعدك، لسَرَّكَ ما فعلوه ولأعجبت بصنيعهم، والغاية أنهم وفوا بما أقسم به، وما خيوا له ظناً.

والجاهلي شديد الشغف بذكر محاسن المرأة يصف  
أعضاءها وملامحها ومزاياها ويحيطها بأحسن ما عنده من  
التشابه، فهي كالبيضة ودرة الفواص في صيانتها وصفائها.  
وشعرها الفاحم كعناقيد النخل، طويل إذا أرسلته ينعفر.  
ووجهها أبيض ضارب إلى الصفرة، يضيء كالشمس أو  
كالبدر أو كالنار، أو كمنارة الراهب. يؤثرون العين السوداء  
والكحلأ والحوراء، التي قد تشبه عين الغزال والمهاة.  
ويستحسنون بياض الاسنان، ويشبهونها بالبرد، ويمدحون  
الثغر ببرودة الريق، وحلاوة الطعم، وطيب النكهة لا تفسده  
نومة الضحى. ويشبهونه بالخمير وبالمسك وبالروضة الأنف.  
ويعجبهم الجيد الأتلع ويرون له شبيهاً في جيد الرثم،  
والخصر الأهيف، والكشح الهضيم، والردف الثقيل، والقامة  
اللدنة. ويشبهون الخصر بالجديل والردف بالكثيب، والقامة  
بالغصن أو بالرمح. ويصفون الانامل بالركة واللطافة حتى  
لتكاد تنعقد، ويشبهونها بالاساريع<sup>(١)</sup>.

ولا تحمد الساق عندهم إلا إذا كانت عيلة<sup>(٢)</sup> صامته  
الججل رياً المخلخل. وخير النساء الحرة المنعمة، الكسول

---

(١) الاساريع: دود ناصع البياض أحد طرفيه يضرب إلى الحمرة طري  
الملمس ناعمه.

(٢) عيلة: ضخمة كثيرة الشحم واللحم.



التي تنام الضحى، ولا تقوم للعمل، القصيرة الخطى،  
 البطيئة إذا مشت انبهرت لكثرة ما عليها من اللحم. ومن  
 صفاتها أن تكون حلوة الحديث عذبة الكلام يتساقط منها  
 تساقط الحلي، حصاناً عفة، وفيه لزوجها كاتمة اسرارها، لا  
 تتدخل فيما ليس يعينها من أسرار الجيران. ولكن غزلهم في  
 كثرته يدل على سوء ظنهم بالمرأة، وشدة ما يعانون من  
 غدرها وتبديلها الاصحاب ونفورها من الزوج إذا كبر وشاب.  
 وطالما حاول الشاعر منهم أن يرد تهمة الكبر بذكر همته  
 ومقدرته على اللهو ولفت انتباه النساء، فهذا كعب يصف  
 حبيبته سعاد بقوله:

فما تَدُومُ على حالٍ تكونُ بها  
 كما تَلَوُّنُ في أثوابها الغولُ  
 ولا تمسك بالعهد الذي زعمتُ  
 إلا كما تمسك الماء الغرايلُ  
 أو قوله متغزلاً بحبيبته رملة:

نَشْفَى بها وهي داءٌ لو تُصَاقِبُنَا  
 كما اشْتَفَى بِعِيَادِ الخمرِ مخمورٌ<sup>(١)</sup>

---

(١) تصاقبنا: تدانينا. اشفى: برىء من دائه. عياد الخمر: العودة إليها.

ما روضةً من رياض الحزنِ باكرها  
 بالنبتِ مُخْتَلِفِ الألوانِ ممطور<sup>(١)</sup>  
 يوماً بأطيب منها نشرَ رائحةٍ  
 بعد المنام إذا حُبَّ المعاطير<sup>(٢)</sup>  
 ما أنس لا أنسها والدمع مُنْسَرِبٌ  
 كأنه لؤلؤ في الخدِّ محدور<sup>(٣)</sup>  
 ومن رقيق قوله :

يا ليتَ شِعْري وليتَ الطيرَ تُخْبِرُنِي  
 أمِثْلَ عَشِيقِي يُلاقِي كُلَّ مَنْ عَشِيقَا  
 إذا سمعتُ بِذِكْرِ الحُبِّ ذُكْرَنِي  
 هنداً فَقَدْ عَلِقَ الأحشاءُ ما عَلِقَا  
 كم دُونَهَا مِنْ عَدُوٍّ ذِي مُكَاشِحَةٍ  
 بادي الشَّوَارَةِ يُبْدي وَجْهَهُ حَنَقَا<sup>(٤)</sup>

- 
- (١) الحزن: طريق بين المدينة وخيبر: قال أبو عمرو: الحزن ما غلظ من الأرض. باكرها ممطور: أنصب عليها من الصباح الباكر.  
 (٢) المعاطير، الواحد معطار: الذي من عادته أن يتعهد نفسه بالطيب.  
 (٣) محدور: منحدر.  
 (٤) المكاشحة العداوة المضرة والمقاطعة. الشوارة: الزينة، وفي الأصل «الشوارة».

على أن الشاعر الجاهلي في مادبته كان لا يُعنى كثيراً بوصف أخلاق المرأة، وعرض نفسيته، وتحليل عواطفها، كما لا يعنى بشكل عام بتصوير لواعج نفسه، وتلمس خفاياها، واستخراج الأهواء المتدفقة فيها. فقد كان يحسن كل الإحساس بالألم والخيبة، واللذة والأمل، فتعبر عن هذه المشاعر المرفهة دموعه وابتهاماته، وتلهفه وابتهاجه، أكثر مما تعبر عنها صوره وألوانه. فهو يحسن تصوير الأشياء الظاهرة المرئية التي تبعث فيه الشعور والاشتياق، ولا يحسن بالتالي تصوير ما في النفس من خوالج وانفعالات. ولربما ظهرت شخصية المرأة في شعرهم عامة مشتركة لتواطئهم على أوصاف رتيبة لا يجاوزونها، ولا يحيدون عنها، فقلما تجد فرقاً بين واحدة وأخرى من عرائس الإلهام.

هذه أهم الموضوعات التي وردت عند الشعراء الجاهليين ومنهم شاعرنا كعب بن زهير رأينا أن نتكلم عنهم جميعاً بشكل عام وعن كعب بشكل خاص توخياً للإفادة والمنفعة، لنُعطي فكرة واضحة كيف نظر هؤلاء الشعراء عامة إلى هذه الموضوعات وإلى أي حد شاركهم فيها شاعرنا كعب.

## بناء القصيدة

١  
كعب كغيره من الشعراء الجاهليين كان أسير النمطية والاتباعية اللتين أوقعتا الشعر الجاهلي في التكرار وفي استهلاك الأحداث والصور، ونعزو ذلك إلى تمسك العرب بالأعراف والتقاليد، وإلى عقليتهم الضيقة المحدودة وما سادها من مفاهيم جعلت المساس بتلك الأعراف والتقاليد خروجاً على الطاعة وشدوذاً على القاعدة والسنن، وقد كانت العصبية والقبلية متحكمتين في الناس إلى الحد الذي جعل الخروج عليهما تمرداً على التماسك والوحدة التي كانت ضرورية في مجتمع قبلي تسوده شريعة القوة وما يتبعها من قتل ونهب وسلب، ولذلك فقد ترسخ في أذهان الناس مفهوم الولاء لكل الأعراف والتقاليد، وتجاوز ذلك إلى الأدب ومعايره، فكان الخروج على أنماطه ضعفاً في شاعرية الشاعر، وقصوراً في خياله وتعبيره، كما كان معيار الفحولة في المحافظة على تلك الأنماط والسير على هديها ومنوالها الذي يرفع ويضع بقدر الإجابة في الالتزام بذلك النهج، وليس بقدر الخروج عليه، ولذا كان الشعر الجاهلي متشابهاً

في موضوعاته وأغراضه، وكان على الشعراء - ومنهم كعب  
ابن زهير - وجوب الالتزام بذلك المنهاج الذي جعلهم  
ينخرطون فيه موالين ومدافعين، حتى أضحووا جميعهم إلا ما  
ندر من السالكين والمؤسسين والدائرين في فلكه، ومن ثم  
كان الخروج تمرّداً يستوجب الخلع والافراد، بل السخرية  
والاستهزاء.

وإذا عدنا إلى شعر كعب وتفحصنا أغراضه الشعرية  
وأساليه البنائية، فإننا نجد ذلك الالتزام الذي ذكرناه واضحاً  
كلّ الوضوح في سائر قصائده، ما عدا مقطوعات صغيرة  
لا تتجاوز في أطولها أصابع اليد الواحدة أفردتها الشاعر لبث  
شكوى من دهره أو حكمة أراد لها أن تشيع وتذهب مثلاً بين  
الناس، فقد حافظ كعب في كل قصائده على السنن التقليدي  
الذي كان يفرض على الشاعر استهلالاً معيناً يتذكر فيه منازل  
الأحباب ومظاعنهم، ويحمله أشجان نفسه وحنينه إلى أوقات  
الوصل واللقاء. ومن ثم يعمد إلى وصف الطبيعة مبتدئاً  
بوصف الناقة أو الحصان، وهما في نظره خير وسيلة توصله  
إلى غايته، وتحقق له رغباته وأمانيه، ويعرج بعد ذلك على  
وصف البيئة الصحراوية وحيواناتها ذاكراً مكابדתه في مهامها،  
وينتهي أخيراً إلى ذكر موضوعه الخاص الذي لا يفرد له في  
أبياته إلا يسيراً من القول، ولمحاً من النظم، يفيدان الغرض

ويدلّان عليه، ولكنهما لا يلمان به إلا لماماً سطحياً يمكن  
القارئ أو السامع من استحضاره أمام العين أو الذاكرة، دون  
أن يعيره الشاعر ذاته، ويحمّله ما يجب أن يحمل من معان  
وأبعاد.

والحق أن كعباً قد دقّق في التزام ذوق أسلافه ومعاصريه  
من الشعراء، فكان رسّاماً لمشاهد اعتاد الشعراء على رسمها  
وأحبّ هو أن يمسك بريشته ويدلي بدلوه ويتفحص بعينه  
ألوانها ومناظرها ومقوماتها، ويتقرّى بيديه خطوطها وأطرها  
ليرسم لنا صوراً طريفة تحمل أحياناً ذوقه الخاص، إلا أنها  
في أكثرها تقع في رتبة التفاصيل والأحداث والتحايل على  
أساليب الصياغة الشعرية التي تزيد خطأ هنا وتعبيراً هناك،  
وفذلكة تبين بما لا يدعو إلى الشك كم استغرق «الجميل  
والناقة من الشعر وخيال الشاعر، وكم استغرق وصف الأرض  
سهلها وحزنها» من وقته وتلاعبه بالألفاظ والعبارات، وظلّ  
ذلك كلّ في إطار الوصف التقريري الذي يرسم ما تقع عليه  
العين، وينقله نقلاً أميناً في أكثر جزئياته وتفاصيله، معتمداً  
على الملاحظة الذاتية الحسية التي «أفرغت في قوالب  
تحدّرت إلى الشعراء من الأجيال القديمة، ومن هنا لم يفسح  
هذا الفن مجالاً واسعاً أمام الشعراء لإظهار شخصياتهم إلا  
في القليل النادر، حيث تكون المفارقة صريحة جداً».

ولنستمع إلى كعب في نموذج من قصائده لتتحقق من ذلك  
الذي أسميناه التزاماً في شعره، ولنقف على الأطر البنائية  
للقصيدة عنده، يقول كعب:

أمن أم شدّادِ رسوم المنازل  
توهمتها من بعد سافٍ ووابل<sup>(١)</sup>  
وبعد ليالٍ قد خلونَ وأشهرٍ  
على إثر حولٍ قد تجرّم كامل<sup>(٢)</sup>  
أرى أم شدّادٍ بها شبه ظبيةٍ  
تطيف بمكحول المدامع خاذل<sup>(٣)</sup>  
أغنّ غضيض الطرف رخصٍ ظلوفه  
ترود بمعتمٍ من الرّمل هائل<sup>(٤)</sup>  
وترنو بعيني نعجة أم فرقد  
تظلّ بوادي روضةٍ وخمائل<sup>(٥)</sup>

---

(١) الرسوم: الآثار. والسّافى: الريح، والوابل المطر.

(٢) الحول: العام. وتجرم: تمّ وانقضى.

(٣) الخاذل: الذي يتخلف عن أمه.

(٤) الأغنّ: صفة للغزال الذي في صوته غنّه، وغضيض الطرف: فاتره،

والرّخص: اللين، وترود: ترعى، والمعتم: الذي لبس العمامة، أي أن

الرمل لبس عمامة من النبات.

(٥) ترنو: تنظر، النعجة: البقرة الوحشية، والفرقد: ولد البقرة.

وتخطو على برديتين غداهما  
أهاضيب رجاف العشيات هاطل<sup>(١)</sup>  
وتفتّر عن غر الثنايا كأنها  
أقاح تروى من عروق غلاغل<sup>(٢)</sup>  
ليالي نحتل المراض وعيشنا  
غريرو ولا نرعى إلى عذل عاذل<sup>(٣)</sup>  
فأصبحت قد أنكرت منها شمائلأ  
فما شئت من بخل ومن منع نائل<sup>(٤)</sup>  
وما ذاك عن شيء أكون أجترته  
سوى أن شيئاً في المفارق شاملي<sup>(٥)</sup>  
فإن تصرميني وثب غيرك تصرمي  
وأوذنت إيدان الخليط المزايل<sup>(٦)</sup>

---

(١) الأهاضيب: جمع أعضوية وهي الدفعة من المطر، والرجاف: المضطرب المصوت كالرعد وغيره.

(٢) تفتّر: تبسم. وعر الثنايا: بيض الاسنان في مقدم الفم. والغلاغل: من تغلغل الماء في الشجر: غلّله.

(٣) المراض: موضع على طريق الحجاز من ناحية الكوفة.

(٤) الشمائل: كرم الأخلاق، والنائل: العطاء.

(٥) أجترته: اقترفته.

(٦) تصرميني: تهجريني وتقطعني جبل مودني، وب: دعاء عليها بمعنى اهلاك والمزايل: المفارق.



إذا ما خليلٌ لم يصلك فلا تقم  
 بتلعتَه واعمد لآخر واصل<sup>(١)</sup>  
 ومستهلكٌ يهدي الضَّلُول كأنه  
 حصير صناعٍ بين أيدي الرُّوامل<sup>(٢)</sup>  
 متى ما تشأ تسمع إذا ما هبطته  
 تراطن سِرْبٍ مغرب الشمس نازل<sup>(٣)</sup>  
 روايا فراخٍ بالفلاة توائمٍ  
 تحطّم عنها البيض حُمر الحواصل<sup>(٤)</sup>  
 توائم أشباهٍ بغير علامةٍ  
 وضعن بمجهولٍ من الأرض خامل  
 وخرقٍ يخاف الرّكب أن يدلجوا به  
 يَعْضُونَ من أهواله بالأنامل<sup>(٥)</sup>

---

(١) التلعة: مسيل مرتفع إلى بطن الوادي.

(٢) المستهلك: الطريق الوعر لكنه واضح المعالم. والرّوامل: النساء الحاذقات في صنع الحُصُر.

(٣) التراطن: اللغظ والصباح. والسّرْب: القطيع من القطا وغيره.

(٤) روايا فراخ: أي التي تستقي الماء فراخها. وتوائم: جمع توائم، أي اثنان اثنان. وتحطّم: تكسر.

(٥) الخرق: التسع من الأرض. والادلّاج: سير الليل كله.

مخوف به الجنانُ تعوي ذئابه  
 قطعت بفتلاء الذراعين بازل<sup>(١)</sup>  
 صموت السرى خرساء فيها تلفتُ  
 لنيأة حقٍّ أو لتشبيهه باطل<sup>(٢)</sup>  
 تظلُّ نسوع الرّحل بعد كلالها  
 يهنّ أطيّط بين جوزٍ وكاهل<sup>(٣)</sup>  
 عذافرة تختال بالرحل حرّة  
 تباري قلاصاً كالنعام الجوافل<sup>(٤)</sup>  
 بوقع دراكٍ غير ما متكلف  
 إذا هبطت وعثاً ولا متخاذل<sup>(٥)</sup>  
 كأن جريري يتحي فيه مسحل  
 من القمر بين الأنعمين فعائل<sup>(٦)</sup>

(١) الجنان: الجن، والفتلاء: الناقة. والبازل: الذي استكمل السنة الثامنة وقطر نابه.

(٢) السرى: سير الليل، والنيأة: الصوت الخفي.

(٣) النسوع: جمع نسع وهو الحبل. والكلال: التعب. والأطيّط: الصرير: وجوز الناقة: وسطها.

(٤) العذافرة: الناقة القوية الأمانة الظهر. والقلوص: الفتية من الإبل. والجوافل: الشوارد.

(٥) بوقع دراك: أي يسر على نسقٍ واحد، والوعث: الأرض ذات الرمل والطين.

(٦) الجرير: الزمام من الجلد. ويتحي: يعتمد. والمسحل: العير. والقمر: أبيض البطون.

يغرد في الأرض الفلاة بعانة  
 خماس البطون كالصعاد الذوايل<sup>(١)</sup>  
 ونازحة بالقيظ عنها جحاشها  
 وقد قلصت أطياؤها بمكاحل<sup>(٢)</sup>  
 وهم بورد بالرئيس فصده  
 رجال قعود في الدجي بالمعابل<sup>(٣)</sup>  
 إذا وردت ماء بليل تعرضت  
 مخافة رأم أو مخافة حابل<sup>(٤)</sup>

لقد بدأ كعب هذه القصيدة بالغزل حيث استغرق القسم  
 الأكبر منها ثم انتهى منه إلى ركوب ناقته والسير بها في طرق  
 الصحراء، واصفاً لهما بكل النعوت المألوفة، معرجاً على  
 وصف مشاهداته ناقلاً تفاصيلها بأسلوب نلمح فيه الدقة  
 والجزالة والمتانة، ولكننا نلمح فيه أيضاً التفاصيل نفسها التي

---

(١) يغرد: يصوب. والعانة: الجماعة من حمر الوحش، والخماس: الهزال.  
 والصعاد: جمع صعدة وهي القناة. والذوايل: الذاوية.  
 (٢) النازحة: الأتان، والقيظ: الحر. وقلصت: جف ضرعها. والأطياء:  
 الأخلاف.

(٣) الورد: ورود الماء، والرئيس: واد فيه الماء، والمعابل: الحجارة بنيت  
 مكامن للصيد.

(٤) تعرضت: تلوت في سيرها بمئة ويسرة، والرامي: الذي يرمي بالسهم،  
 والحابل: أي الذي ينصب الخبال أشراكاً للايقاع بها.

اعتدنا أن نسمعها من أبيه ومن غيره من الشعراء السابقين .  
ويبدو كعبٌ في هذه الأبيات صائغاً ماهراً ورث صنعة  
تحدّرت إليه من أبيه، ومن أنماط صناعيّة معروفة، إلا أنه  
حاول أن يبني لنفسه بيتاً خاصاً به، أو عقداً اختار حباته  
بنفسه، ولكنّ الحجارة التي استعملها في بناء ذلك البيت،  
لم تكن لتختلف عن غيرها من حجارة الآخرين، والحبات لم  
تكن إلا حبات عقودٍ أفردها، ومن ثمّ عاد ليشك منها عقداً  
آخر يحمل طابعه الخاص وترتيبه المتفرّد، واستطاع إلى حدّ  
ما أن يبني لنا بيتاً جميلاً أو عقداً رائعاً، إلا أنه لم يستطع أن  
يخرج في ذلك البناء والترتيب على تقاليد عصره، بحيث ظلّ  
البناء أو العقد عملاً له نظائره، وصنعة لها ما يحاكيها  
ويشابهها، فهو لم ينطلق إلى غايته من بواعث نفسيّة خاصة،  
أو مشاعر ذاتية ضاغطة، فرضت عليه أن يعبر عن حاجاتٍ  
اعتملت في النفس، ووجدت في الشعر مجالاً للانفصاح عنها  
بأسلوبٍ خاص يحمل كلّ توجعات الذات وهموم الحياة،  
ولكن كعباً لم يفعل ذلك وآثر أن يسير في أبياته على طريق  
من تقدّمه، ففقد شعره بذلك رونق الجدّيّة وشمولية الأبعاد،  
وظلّت تنقصه التجربة التي تهزّ المشاعر، وتبعث الكلم دقاً  
مستلّاً من الأعماق، حاملاً معه كل عناصر الشعر الأصيل .  
وإذا نحن حاولنا أن نتجاوز هذا الموضوع إلى غيره من

الموضوعات الأخرى في شعر كعب، فإننا سنلمح في ديوانه شعراً متشابهاً في كثيرٍ من قصائده، وهذا حقيقة نلمسها في نزوعه الدائم إلى وصف الصحراء والفاقة، وما في الصحراء من طرقٍ وحيوانات وتفاصيل تتكرر هنا وهناك، يقلبها الشاعر في صياغات متعددة حصرت خياله في بيئة لم يستطع التفلُّت منها، فظلَّ يرسف في تقريرية قلَّما تركت الخيال يتكرر ويتفتق عن معانٍ جديدة، وصورٍ ذهنية بارعة، حتى في مدحه للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، فإنَّ روح التقليد يبدو واضحاً وجللياً، وكأنَّ الشاعر يمدح في شعره سيِّداً من سادات قومه ورئيساً من رؤسائهم، لا نبياً جاء بأكبر انقلابٍ دينيٍّ عرفته البشرية، وأحدث تغيّرات أصيلة في جوهر الحياة الإنسانية قاطبة، وظلَّ تأثره بالدعوة الإسلامية عرفياً، قصاراه أنَّ محمداً نبيَّ الله وسيفٌ من سيوفه المسلوكة، العفو عنده مأمول، والوعد لديه منجز، والتوبة في حضرته مقبولة، فهو كالأسد قوَّة وبطشاً وهيبة، فلولا قوله:

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلاً  
 ة القرآن فيها مواعيطٌ وتفصيل  
 وقوله:

إنَّ الرسول لسيفٌ يستضاء به  
 مهنَّدٌ من سيوف الله مسلول

وأبيات أخرى تصف همّه وخوفه واستسلامه لحكم الله،  
لما أمكننا أن نميّز معانيه المدحية ونعوته الوصفية، عن شاعرٍ  
كالنابغة وهو يعتذر إلى النعمان ويطلب منه العفو والصفح .

وهكذا نجد كعباً في كلّ شعره تقريباً يسير على السنن  
التقليدي المرسوم، دون أيّ إخلالٍ بنهجه وُصْواه، ولكننا مع  
ذلك لا نريد أن نظلم الرجل أو نبخسه حقّه، لأنه لم يستطع  
أن يوجد تلك الفريدة البنائية المحبّبة في الشعر، فهو في  
شعره ذاك كان أيضاً على قدرٍ كبير من الإجادة والإحاطة التامة  
بتفاصيل الموصوف الظاهرة التي لم يحاول استبطن معانيها،  
واكتفى منها بالرسم الخارجي لها، مختاراً كلّ العبارات التي  
توائم ذلك، وتساعد على إبراز الموصوف وإحضاره أمام مرآة  
العين في خطوطٍ جذابة، تصوّر بدقة وأمانة كلّ مكوناته  
المادية المحسوسة، حتى يبدو لك الشاعر نحّاتاً أصيلاً يصنع  
للموصوف تمثالاً جامداً يظهره لك بكلّ دقائقه وتفصيله كما  
هو، دون أن يلبسه ثوباً من المشاعر، أو يسكب فيه نغم  
الحياة وصوتها الشجيّ المتحرّك، ويشير الدكتور فؤاد افرام  
البستاني إلى تلك الظاهرة فيقول: «إنما شعره في أكثره  
تصوير، وتصويرٌ دقيق يسمو إلى درجة عالية من الصناعة، بل  
من الفنّ أحياناً، ولا عجب، فهو ابن زهير وتلميذه، وأحد  
أفراد ذلك المذهب التصويري المادي الذي بدأ بأوس بن

حجر زوج أم زهير، وبلغ أوجه مع زهير والنابعة، وكان من ممثليه شاعرنا كعب والحطيئة كما قدّمنا، وليس من حاجة بهذا المذهب إلى كثير من الشعور الرقيق السيّال، وإن كان الشعور يمدّه رونقاً وتشخيصاً وحياءً تزيد في قيمته، إنّما حاجته إلى الصبر في تتبّع الموصوفات، واختيار القوافي، وإلى قوّة الخيال أيضاً.

وسواءً بعد الذي سمعناه، أكان كعب في عداد شعراء المدرسة الأوسية، أم كان في غيرها، أو هو تأثّر بأبيه أو بالنابعة أو بغيرهما من الشعراء، فهو في نظرنا شاعرٌ مكتمل، ولكنّه لم يستطع أن يخرج عن إطار بيئته التي ظلّت تشدّه إليها بحبالٍ قويّة وثابتة، فنظم على منوال ما نظم معاصروه، فكان واحداً منهم، تأثّر بما تأثروا، وانتهج ما انتهجوا، بل ونراه في بعض الموضوعات كوصف الصحراء وطرقها وحيواناتها قد تفوّق على أكثرهم؛ وكان أكثر دقّة وتفصيلاً، وأكثر اختياراً واستيفاءً وتهذيباً، وحسب كعب في هذا المجال، أنه صَفَى شعره من الشوائب، وتنخّل له أنسب الكلمات، وألّم بموضوعه كلّ الإلمام الذي ينقل الصور نقلاً لا غبار عليه ولا شبهات، فكان تلميذاً بارعاً لأبيه، معترفاً بفضلِهِ، معترّاً بالسّير على منواله، يقول كعب في ذلك:

فإن تسأل الأقوام عني فإنني  
 أنا ابن أبي سُلمى على رغم من زعم  
 أقول شبهات بما قال عالماً  
 بهنّ ومن يشبه أباه فما ظلم  
 واشبهته من بين من وطئ الحصى  
 ولم ينتزعني شبه خالٍ ولا ابن عم  
 لقد حفل ديوان كعب بقصائد متنوعة، ألّمت بكلّ  
 الأغراض الشعرية في عصره، وهي قصائد استطاع كعب فيها  
 أن يكون رسّاماً أو مصوراً ينقل إليك عبر لغة جزلة متينة،  
 وبعيدة عن الضعف والركاكة، مشاهد من بيئته الضاغطة التي  
 فرضت عليه منحى من القول، ومساراً إلى تغيير، وحسب  
 كعب في هذا المجال أن يكون قد سلك لاحقاً في صحرائه،  
 واستطاع أن يصل إلى القمة التي وصل إليها سالكوه، بل  
 ويزيده فخراً على من تقدّمه أنّه لم يكن أسير ذلك اللا حب  
 ونهج المتعرج في كلّ أموره ومشاغله، بل كان شاعراً إنساناً  
 عرف أين يضع أقدامه، ولذلك لم يتوان قيد لحظة عن سلوك  
 لا حب الخير والهداية والإيمان، بعد تيقّنه من صوابه وسلامة  
 مسراه<sup>(١)</sup>.

(١) راجع فيما كتبنا. حول بناء القصيدة. ديوان كعب بن زهير شرح ودراسة،  
 د. مفيد محمد قميحة، حيث استفدنا أكثر ما أثبتناه.



## لغته وأسلوبه

إنَّ المُطَّلِعَ على أشعار كعب في ديوانه يجد لغة تترواح بين الغرابة والغلظة، وبين السلاسة واللين، فهي تبدو شديدة وعرة قاسية في وصفه الصحراء وحيوانها وطرقها ومنازلها، لكنَّها كلَّما اقتربت من المشاعر وخصوصاً في غزلياته وحكمه المتفرقة وأمثاله وبعض معانيه الإسلامية، فإننا في هذه جميعاً نشهد لغة مألوفة ومأنوسة، هذَّبتها المشاعر، وصقلتها التجارب، وأخفى عليها الإسلام جدَّةً وخلوداً.

أما أسلوب كعب، فيظهر كذلك أن الإسلام قد أحدث فيه بعض التغيّرات، إذا مدَّه بكثيرٍ من المعاني الجديدة التي كتب لها الخلود والبقاء، فهو في قصائده التي قالها بعد الإسلام يعيل إلى الرقة واللين، بينما نراه في قصائده الجاهلية شديداً جافاً تبدو عليه غلظة الجاهلية وقسوتها وضيق أفقها الذي يحصر الخيال والمشاعر في صورٍ رتيبة ومجاراتٍ لا تسمحُ بالسَّروح والانطلاق.

وهذا التغيير الذي قلنا إنه أصاب أسلوب كعب أحياناً، فإنه لم يكن ليشكل تغييراً جذرياً، لأنَّ كعب ظلَّ ملتزماً فيه

بالقيم الفنية التي ورثها عن أبيه ومدرسته الشعرية التي حولت الشعر إلى صنعة تتطلب الكثير من الخبرة والرؤية والدراية، وهي صنعة في رأينا ليست متكلفة، ولا هي بعيدة عن الذوق والعفوية والصدق في نقل الصور والمشاهد، لأنها تهدف إلى تصفية الشعر وتنقيحة وتخليصه من الشوائب والسقطات، بل هو في نظرنا استلهام لمعانٍ جديدة كتب لها الإسلام الحياة، فظلت متداولة بين الناس، وصارت مألوفة مستساغة في كل عصر، بعكس تلك المعاني التي بقيت أسيرة الصحراء، وغمرتها رمال الزمن، محرماتها نعمة التطور، وأضفت عليها البعد والغرابة والشدة..



## نماذج من شعره



## هل حبل رملة: من البسيط

هل حبل رملة قبل البين مبتور  
أم أنت بالحلم بعد الجهل معذور<sup>(١)</sup>  
ما يجمع الشوق إن دارُ بنا شحطت  
ومثلها في تداني الدار مهجور<sup>(٢)</sup>  
نشقى بها وهي داء لو تصاقبنا  
كما اشقى بعياد الخمر مخمور<sup>(٣)</sup>  
ما روضةً من رياض الحزن باكرها  
بالنبت مختلف الألوان ممطور<sup>(٤)</sup>  
يوماً بأطيب منها نشر رائحة  
بعد المنام إذا حبّ المعاطر<sup>(٥)</sup>  
ما أنس لا أنسها والدمع منسرب  
كأنه لؤلؤ في الخدّ محدور<sup>(٦)</sup>

---

(١) البين: الهجران. المبتور: المنقطع.

(٢) شحطت: بعدت.

(٣) تصاقبنا: تدانينا، وعياد الخمر: أي العودة إليها.

(٤) الحزن: طريق بين المدينة وخيبر، والحزن الأرض الغليظة.

(٥) نشر رائحة: أي عبقها. والمعاطر: الذي من عادته التطيب.

(٦) منسرب: مذكروف. ومحدور: منحدر.

- لَمَّا رَأَيْتُهُمْ زَمْتُ جِمَالَهُمْ  
 صَدَقْتُ مَا زَعَمُوا وَالْبَيْنَ مُحْذُورٌ<sup>(١)</sup>  
 يَحْدُو بِهِنَّ أَخَوَقَاذُورَةٌ حَذْرٌ  
 كَأَنَّهُ بِجَمِيعِ النَّاسِ مَوْتُورٌ<sup>(٢)</sup>  
 كَأَنَّ أَظْعَانَهُمُ تَحْدَى مَقْفِيَةٌ  
 نَخْلٌ بِعَيْنَيْنِ مُلْتَفٍّ مَوَاقِيرُ<sup>(٣)</sup>  
 غُلْبُ الرِّقَابِ سَقَاها جَدُولُ سَرْبُ  
 أَوْ مَشْعَبُ مِنْ أَتَى الْبَحْرَ مَفْجُورٌ<sup>(٤)</sup>  
 هَلْ تَبْلَغْنِي عَلَيَّ الْخَيْرِ ذَعْلَبَةٌ  
 حَرْفٌ تَرْتَلُ عَنْ أَصْلَابِهَا الْكُورُ<sup>(٥)</sup>  
 مِنْ خَلْفِهَا قَلْصُ تَجْرِي أَرْزَمَتِهَا  
 قَدْ مَشَّهَنَ مَعَ الْإِدْلَاجِ تَهْجِيرُ<sup>(٦)</sup>

- 
- (١) زَمْتُ: ربطت. والأَزْمَةُ: الحبال.  
 (٢) القاذورة: الناقة التي تترك ناحية أخرى وتنافرها عند الحلب.  
 (٣) الأظعان: جمع ظئنة وهي المرأة في المودج. وعينين: اسم مكان. ومواقير: كثر حملها.  
 (٤) غلب الرقاب: غلاظها. والمشعب: الطريق. والآني: الموج والسيل.  
 (٥) الذعلبة: الناقة السريعة. والحرف: الناقة الصلبة الضامرة. والكور: الرّحل.  
 (٦) القلص: النوق الفتية. والإدلاج: سير الليل. والتهجير: سير الهاجرة.

يخبطن بالقوم أنضاء السَّريح وقد  
 لاذت من الشمس بالظلَّ اليعافير<sup>(١)</sup>  
 قالوا تنحوا فمَسُوا الأرض فاحتولوا  
 ظلًّا بمنخرقٍ تهفو به المور<sup>(٢)</sup>  
 ظلُّوا كأنَّ عليهم طائراً علقاً  
 يهفو إذا انصرفت عنه الأعاصير<sup>(٣)</sup>  
 لوجهة الريح منهم جانبٌ سلبٌ  
 وجانبٌ يأكفَّ القدم مضبور<sup>(٤)</sup>  
 حتى إذا أبردوا قاموا إلى قلصٍ  
 كأنهن قسيُّ الشوحط الزور<sup>(٥)</sup>  
 عواسلُ كرعيل الرِّيد أفزعها  
 بالسِّي من قانسٍ شلٌّ وتنفير<sup>(٦)</sup>

(١) أنضاء: هُزال، والسَّريح: سَيْرٌ تشدُّ به الخدمة فوق رِسع البعير. واليعفور: الضبي.

(٢) احتولوا: احتشوا، والمنخرق: المكان تنخرق فيه الريح، أي تهب. والمور: التراب تسفه الريح.

(٣) الطائر العلق: الواقع في الأشرار. يهفو: يطير. انصرفت: انكشفت.

(٤) السلب: السريح. والمضبور: المجتمع الخلق الأملس.

(٥) أبردوا: دخلوا في العشي. الشوحط: ضرب من الشجر تنخذ من عوده القسي والزور: الواحدة زوراء: أي القوس المنعطفة.

(٦) العواسل: المضطربة في سيرها. والرعيل: الجماعة. والرِّيد: النعام القائمة اللون. والسِّي: موضع. والشل: الطرد.



حتى سقى الليل سقي الجن فانغمست  
 في جوزه إذ دجا الأكام والقور<sup>(١)</sup>  
 غطى النّشاز مع الأكام فاشتبهها  
 كلاهما في سواد الليل مغمور<sup>(٢)</sup>  
 إنّ عليّاً لميمونٌ نقيبته  
 بالصالحات من الأفعال مشهور<sup>(٣)</sup>  
 صهر النبي وخير الناس مفتخراً  
 فكل من رآه بالفخر مفخور  
 حلّى الطهور مع الأمي أولهم  
 قبل المعاد وربّ الناس مكفور<sup>(٤)</sup>  
 مقاومٌ لطفاة الشّرك يضر بهم  
 حتى استقاموا ودين الله منصور<sup>(٥)</sup>  
 بالعدل قمت أميناً حين خالفه  
 أهل الهوى وذوو الأهواء والزور<sup>(٦)</sup>

(١) جوزه: وسطه. ودجا: أظلم، والقور: الجبل المرتفع في السماء.

(٢) النّشاز: ما ارتفع من الأرض.

(٣) النّقيبة: السّجّة والطّيع.

(٤) المكفور: المحجوب، والمستور.

(٥) استقاموا: أي ثابوا إلى رشدهم.

(٦) في البيت إقواء، وهو اختلاف حركة الروي عمّا قبله وبعده.

يا خير من حملت نعلًا له قدمٌ  
بعد النبيّ لديه البُغي مهجور  
أعطاك ربّك فضلًا لا زوال له  
من أين أنى له الأيام تغيير

## ألا أسماء صرّمت الحبّالا : من الوافر

ألا أسماء صرّمت الحبّالا  
فأصبح غادياً عزم ارتحالا<sup>(١)</sup>  
وذات العرض قد تأتي إذا ما  
أرادت صرم خلّتها الجمالا<sup>(٢)</sup>  
تعاورها الوشاة ففَيروها  
عن الحال التي في الدّهر حالا<sup>(٣)</sup>  
ومن لا يفتأ الواشين عنه  
صباح مساء ينحوه الخبّالا<sup>(٤)</sup>  
فسلّ طلابها وتعزّ عنها  
بناجية كأن بها خيالا<sup>(٥)</sup>

---

(١) صرّمت: قطعت.

(٢) ذات العرض: أي ذات الحسب والشرف، يريد أنها إذا هجرت أبقت للمؤدّة موضعاً.

(٣) تعاورها: اكتنفها.

(٤) يفتأ: يردّ. والخبّال: الفساد في العقل والرأي.

(٥) سلّ طلابها: تعزّ عنها. والناجية: السريعة من النوق.

أمونٍ ما تملُّ وما تشكى  
 إذا جشمتها يوماً كلالاً<sup>(١)</sup>  
 فأبلغ إن عرضت بنا رسولاً  
 أبا المملوح إن له جلالاً<sup>(٢)</sup>  
 أمودٍ خلفكم هراً ولماً  
 تذوقوا من عداوتنا وبالا<sup>(٣)</sup>  
 ولماً تفعلوا إلا وعيداً  
 كفى بوعيدكم لهم قتالاً<sup>(٤)</sup>  
 وعيدٌ تخرج الأرحام منه  
 وينقل من أماكنها الجبالاً<sup>(٥)</sup>  
 خفيف الغيث تعجبت من رآه  
 مخيلته ولم تقطر بلالاً<sup>(٦)</sup>

(١) الأمون: الأمانة السَّير التي لا يخشى عثارها. والكلال: الاعياء.

(٢) عرضت بنا: مررت بنا وجزت.

(٣) المودي: الهالك. والوبال: سوء العاقبة.

(٤) الوعيد: التهديد.

(٥) تخرج الأرحام: تضع ذوات الحمل لغير ميعادها.

(٦) مخيلته: رؤياه. والبلال: القطرة، المعنى إنه غيث يحسبه الناظر ممطراً إلا  
 إلا أن الريح تفرقه فلا يطر قطرة واحدة.

## شبان وشيب: من الوافر

نفى أهلَ الحبلق يوم وج  
مُزَيَّنَةٌ جَهْرَةً وبنو خفاف<sup>(١)</sup>  
صبحناهم بألفٍ من سُليمٍ  
وألفٍ من بني عثمان واف<sup>(٢)</sup>  
حدوا أكتافهم ضرباً وطعنأ  
ورمياً بالمرِيْثَةِ اللَّطاف<sup>(٣)</sup>  
رميناهم بشبانٍ وشيبٍ  
تكفكف كلَّ ممتنع العطاف<sup>(٤)</sup>  
ترى بين الصّفوف لهنّ رشقأ  
كما انصاع الفُواق عن الرّصاف<sup>(٥)</sup>

---

(١) الحبلق: الغنم الصغير. ووج: الطائف.

(٢) الوافي: التام.

(٣) حدوا: اتبعوا. والمرِيْثَةُ: السهام.

(٤) العطاف: الواحد عطف، وهو الجنب، يقال: مال بعطفه، أي تكبر.

(٥) الفُواق: مرقع الوتر من ريش السهم. والرّصاف: عقب يشدّ على الفوق.

ترى الجردَ الجياد تلوحُ فيهم  
 بأرماح مقدّمةِ الثقاف<sup>(١)</sup>  
 ورحنا غانمين بما أردنا  
 وراحوا نادمين على الخلاف<sup>(٢)</sup>  
 وأعطينا رسول الله منّا  
 موثيقاً على حُسنِ التصافي<sup>(٣)</sup>  
 فجزنا بطن مكّة وامتنعنا  
 بتقوى الله والبيض الخفاف<sup>(٤)</sup>  
 وحلّ عمودنا حجرات نجدٍ  
 فألّية فالقُدوس إلى شراف<sup>(٥)</sup>  
 أرادوا اللّات والعزّى إلهاً  
 كفى الله دون اللّات كاف<sup>(٦)</sup>

---

(١) الجرد: القصيرة الشعر من الخيل. والثقاف: حديدة يقوم بها الحديد المعوج.

(٢) الخلاف: أراد به مخالفة الرسول عليه الصلاة والسلام.

(٣) الموثيق: العهد.

(٤) جزنا: قطعنا. والبيض: السيوف.

(٥) العمود: خباء طويل يقرب على الأعمدة فيقتال لأهله عليكم بأهل ذاك العمود. وشراف: ماء بنجد.

(٦) اللّات والعزّى: من أصنام العرب.

## ألا ليت سلمى: من الطويل

ما برح الرِّسْمُ الذي بين حنجرٍ  
وذلفة حتى قيل هل هو نازحُ<sup>(١)</sup>  
وما زلت ترجو نفع سُعدى ووُدَّها  
وتبعدي حتى أبيضَ منك المسائحُ<sup>(٢)</sup>  
وحتى رأيت الشخص يزدادُ مثلهُ  
إليه وحتى نصفُ رأسي واضحُ<sup>(٣)</sup>  
علا حاجبي الشيبُ كأنه  
طبءٌ جرت منها سنيحُ وبارحُ<sup>(٤)</sup>  
فأصبحت لا أبتاعُ إلا مؤامراً  
وما بيعُ من يبتاعُ مثلي رابحُ<sup>(٥)</sup>

---

(١) الرِّسْمُ: الأثر، وحنجر: مكان. وذلفة: مكان أبيضاً. والنازح: المنحل.

(٢) المسائح: شعر جانبي الرأس.

(٣) الواضح: من الوضع وهو الشيب، يريد أنه كبر وضعف بصره.

(٤) السائح: ما مرَّ عن يمينك. والبارح: ما مرَّ عن شمالك، وهما لليمن والشؤم.

(٥) المؤامر: المشاور.

- ألا ليت سلمى كلما حان ذكرها  
 تبلّغها عنّي الرّيح النّوافع<sup>(١)</sup>  
 وقالت تعلّم إنّ ما كان بيننا  
 إليك أداء إن عهدك صالح<sup>(٢)</sup>  
 جميعاً تؤدّية إليك أمانتي  
 كما أدّيت بعد الغراز المنائح<sup>(٣)</sup>  
 وقالت تعلّم إنّ بعض حموتي  
 وبعلي غضاب كلّهم لك كاشع<sup>(٤)</sup>  
 يحدّون بالأيدي الشّفار وكلّهم  
 لحلقك لو يستطيع حلقك ذابح<sup>(٥)</sup>  
 وهزّة أضعانٍ عليهنّ بهجة  
 طلبت وريعان الصّباي جامح<sup>(٦)</sup>  
 فلما قضينا مني منى كلّ حاجة  
 ومسح ركن البيت من هو ماسح<sup>(٧)</sup>

(١) النوافع: التي تب.

(٢) تعلّم: بمعنى اعلم. والأداء: المؤدي إليك.

(٣) الغراز: قلة اللبن. والمنائح: الواحد منيحة وهي الشاة أو الناقة.

(٤) الحموة: أقارب الزوج. والكاشع: المبغض.

(٥) يحدّون: أي يستنون ويشحدون. والشّفار: حدّ السيف.

(٦) الأظعان: النساء في هوداجهن. والجامح: الذي يجمع به عن رزانه.

(٧) منى: في درج الوادي الذي ينزله الحاج ويرمي فيه الجهار من الحرم.



- وشدّت على حُذْب المهاري رحالها  
 ولا ينظر الغادي الذي هو رائح<sup>(١)</sup>  
 فقلنا على الهُوج المراسيل وارتمت  
 بهنّ الصحارى والصّامد الصّاحص<sup>(٢)</sup>  
 نزعنا بأطراف الأحاديث بيننا  
 ومالت بأعناق المطيّ الأباطح<sup>(٣)</sup>  
 وطرّت إلى قوداء قَاد تليلها  
 مناكبها واشتدّ منها الجوانح<sup>(٤)</sup>  
 كأني كسوت الرّحل جونا رباعياً  
 تضمّنه وادي الرّجا فالأفايح<sup>(٥)</sup>

- 
- (١) الحذب: الواحد أحذب وحذباء. والمهاري: منسوبة إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن وهي سريعة لا تعادل سرعتها. والغادي: الرائح غداة أي في الصباح. والرائح: أي السائر في المساء.
- (٢) قلنا: من القائلة وهو النوم في منتصف النهار. والمراسيل: السريعة الجري. والصّامد: ما غلظ من الأرض. والصّاحص: ما استوى من الأرض وانبسط.
- (٣) نزعنا: أخذنا. والأباطح: جمع أبطح وهو مكان متسع منبسط يسيل فيه الماء فيخلف التراب والحصى.
- (٤) القوداء: الناقة الطويلة العنق. والتليل: العنق. وقاد: تقدّم.
- (٥) الجوانح: أضلاع الصدر.
- (٥) الجون: الحمار الوحشي. والرباعي: الذي سقطت رباعيته وهي السنّ التي بين الثنية والناب، والرجا والأفايح: موضعان.

مُمَرّاً كَعَقْدِ الْأَنْدَرِيِّ مَذْمُجاً  
 بَدَا قَارِحٌ مِنْهُ وَلَمْ يَبْدُ قَارِحٌ<sup>(١)</sup>  
 كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ قَبَاءٍ بَطَانَةٌ  
 تَفْرُجُ عَنْهَا جَيْبُهَا وَالْمَنَاضِحُ<sup>(٢)</sup>  
 أَخُو الْأَرْضِ يَسْتَخْفِي بِهَا غَيْرَ أَنَّهُ  
 إِذَا اسْتَأْفَ مِنْهَا قَارِحاً فَهُوَ صَائِحٌ<sup>(٣)</sup>  
 دَعَامَا مِنَ الْأَمْهَادِ أَمْهَادٌ عَامِرٌ  
 وَهَاجَتِ مِنَ الشُّعْرَى عَلَيْهِ الْبَوَارِحُ<sup>(٤)</sup>

---

(١) الْمُعَرَّ: الذي احكم قتله. والأندريّ: منسوب إلى أندر تعمل فيها الحبال.  
 والمنمّج: المحكم الفتل. والقارح: الناب الذي ينبع بعد سقوط السنّ  
 الرباعية.

(٢) يقال: إنما أراد أن عليه بياضاً من لونه قد جَلَلْ مراته وبطنه.

(٣) استأف: شَمَّ. والقارح: الحامل.

(٤) هاجت: اشتدَّ حرّها. والشُعْرَى: الكوكب الذي يطلع في الجوزاء،  
 وطلوعه في شدة الحرّة. والبوارح: الرياح الحارة في الصيف.



## ثبت المصادر والمراجع

- ابن سلام الجمعي - طبقات الشعراء  
ابن قتيبة - الشعر والشعراء  
الأصبهاني - الأغاني  
المسعودي - مروج الذهب  
الطبري - تاريخ الأمم والملوك  
ابن خلدون - المقدمة  
ياقوت الحموي - معجم البلدان  
طه حسين - في الأدب الجاهلي  
أحمد أمين - فجر الإسلام  
علي فاعور - ديوان كعب  
مفيد قميحة - شرح ودراسة ديوان كعب  
بطرس البستاني - أدباء العرب  
شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي  
عبد العزيز عتيق - علم العروض والقافية  
محمد حسين - الهجاء والهجاؤون  
صلاح الدين المنجد - جمال المرأة عند العرب  
محمود الألوسي - بلوغ الأرب



# فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
١ - المقدمة	٣
٢ - لمحة تاريخية عن ديار العرب قبل الإسلام	٥
٣ - أحوال العرب الاجتماعية في الجاهلية	١٠
٤ - شخصية البدوي وأخلاقه	١٠
٥ - الحياة العقلية	١٢
٦ - سيد القبيلة	١٣
٧ - المرأة	١٤
٨ - الغزوات	١٨
٩ - المعاش	٢٠
١٠ - الأديان	٢١
١١ - المعتقدات	٢٣
١٢ - العلوم والمعارف	٢٣
١٣ - لغة العرب وآدابهم	٢٥
١٤ - اللغة	٢٥
١٥ - الكتابة	٢٦

٢٦	١٦ - الأدب
٢٩	١٧ - الشعر الجاهلي
٢٩	١٨ - مميزات الشعر الجاهلي
٣٥	١٩ - صدر الإسلام - لمحة تاريخية
٣٨	٢٠ - كعب بن زهير
٣٨	٢١ - مميزات الشعر المخضرم
٤١	٢٢ - كعب وحياته
٤٤	٢٣ - كعب في الإسلام
٦١	٢٤ - أشعاره
٧٦	٢٥ - آثاره
٧٧	٢٦ - مميزات
٧٨	٢٧ - منزلته
٧٩	٢٨ - شعره الحكمي
٨٥	٢٩ - الفخر والحماسة في شعره
٩٣	٣٠ - المدح في شعره
٩٨	٣١ - الهجاء في شعره
١٠٦	٣٢ - الرثاء في شعره
١١٠	٣٣ - الغزل في شعره
١١٥	٣٤ - بناء القصيدة
١٢٨	٣٥ - لغته وأسلوبه

- ٣٦ - نماذج من شعره ..... ١٣١
- ٣٧ - ثبت المصادر والمراجع ..... ١٤٧
- ٣٨ - فهرس الموضوعات ..... ١٤٩



